بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ياكريم

التكافل الاجتماعى فى السنة المباركة وأثرة فى الأمة ورقيها

دراسة موضوعية

دكتور / عبد الله عبد العليم أبو العيون

مدرس الحديث وعلومه

بكلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات

بالاسكندرية ـ جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه بين يدى البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإنه مما يستوجب الشكر الجزيل لله رب العالمين، من بين نعمه السابغة على عباده، التى لا تحصى ولا تعد، أن أرسل لنا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وقدوة فى الخير وللخير إلى يوم الدين، لمن تبعه وسار على نهجه وهديه، ففى طاعته طاعة الله تعالى وهى أسمى الغايات والمقاصد، وفى طاعته سعادة الدنيا والآخرة، وفى طاعة الأمة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوتها، ورقيها، وتقدمها، وحضارتها، وأمنها، وأمانها دون ريب ولا شك، والشكر على النعمة أمان لزوالها.

إنه مما يشغل عصرنا ليل نهار ويقلق الأمة، كما يقلق الفرد، وينغص عليه حياته، التكافل الإجتماعى وخاصة " التكافل المعاشى" وبمصطلح العصر "الناحية الاقتصادية" للأمة والفرد على السواء، وهذه المسألة وإن كانت ذات أهمية لا يمكن الجدال فيها، أو غض الطرف عنها البتة، إلا أنها فى الحقيقة ينبغى ألا ينصب كل مشاعر المسلم وأحاسيسه، ووجدانه إلى الجانب المادى، فما هو إلا وسيلة إلى اسمى غاية وهى طاعة الله تعالى، وحسن عبادته، فمن كانت الآخرة همه كفاه الله تعالى هم دنياه، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه. قال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب﴾[1] .

---

[1] سورة الشورى (٢٠)

وعند تدبر السنة بروية وأناة نرى بوضوح كيف أنها وضعت أمر المعيشة، أو "الناحية الاقتصادية" موضع الاهتمام، مع جعلها وسيلة للغاية العظمى كما تقدم. ولثبوت شرع الله تعالى، كانت السنة أعظم المصادر - بعد كتاب الله عز وجل - فى وضع أنسب الحلول لقضايا كل عصر لجميع نواحى الحياة، لاسيما الناحية "الاقتصادية".

ولن تصل أمة الإسلام إلى حقيقة التقدم والرقى بين الأمم، إلا إذا أخذت بالمنهج النبوى الشريف وحى الله تعالى لرسوله، ليصلح به العباد البلاد، وأهل الإيمان لا مراء عندهم فى هذه الحقيقة ولا جدال.

من هذا المنطلق توجهت رغبتى إلى عمل دراسة حول السنة وقضايا العصر تختص بجانب "التكافل الاجتماعى" فى السنة الشريفة، وكيف كانت، ومازالت ملجأ إلى كل راغب، فى حياة كريمة، تقوم على أصح المناهج العلمية المستقاة من السنة المباركة بخصائصها وأركانها. إن المنهج النبوى الشريف يتصف بالشمول والتوازن ، واليسر ، قال تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم. فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[1] .

فالسنة المباركة منهج شامل لحياة المرء كلها، يوازن بين روحه وجسده، ودنياه وآخرته دون حرج ولا إرهاق، بل هى اليسر والرحمة والسماحة والسهولة قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[2] .

---

[1] الأعراف (١٥٧)

[2] الأنبياء (١٠٧)

وقال صلى الله عليه وسلم " أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة[١] ، وقال صلى الله عليه وسلم عن قناعة ويقين علمى "بعثت بالحنيفية السمحة"[٢] . فطوبى لمن وفقه الله تعالى، ولان قلبه لقول الله عز وجل وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنما لان وأجاب بنور الرحمة الذى ناله.

هذا وأسأل الله عز وجل أن يشرح لى صدرى، وأن ييسر لى أمرى، وأن يغفر الزلل، وأسأله العون والتوفيق، وأستغفر الله العظيم، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د/ عبد الله عبد العليم أبو العيون
مدرس الحديث وعلومه ـ بكلية الدراسات
الاسلامية والعربية ـ للبنات بالاسكندرية
جامعة الأزهر

---

[١] "الطبقات الكبرى" لابن سعد جـ١ صـ١٩٢ ط دار صادر بيروت. ١٤٠٥ـ١٩٨٥م "نوادر الاصول فى معرفة أحاديث الرسول" للحكيم الترمذى جـ٢ صـ٢٨٤. ط دار الريان للتراث ـ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.م

[٢] "الطبقات الكبرى" جـ١ صـ١٩٢

- مفهوم التكافل الاجتماعى -

قبل الكلام عن موقف السنة من هذه القضية من المهم أن نعرف مفهوم "التكافل الاجتماعى" وما ينبغى أن يكون عليه ضابطه حتى يتوافق مع الهدف من بيان موقف السنة منه.

· **الكفيل فى اللغة:** الضامن.

والكافل: الذى يكفل إنساناً يعوله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وكَفَّلَها زكريا ﴾[١] .

والكفالة: الضمان، ويقال: هو كافيه وكافله، وهو يكفينى ويكفلنى: يعولنى وينفق علىّ. وأكفلته إياه وكفلته قال تعالى: ﴿ أكفلنيها ﴾[٢] .

وهو كفيل بنفسه وبماله، وكفل عنه لغريمه بالمال، وتكفل به. ومنه الكافل: الضامن والعائل، والجمع كُفَّلٌ وكُفَلاَءُ، ومنه الكِفْل: الحظ والنصيب الذى فيه الكفاية، كأنه تكفل بأمره، والكِفْل أيضاً: الضعف، قال تعالى: ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾[٣] . وفى الآية أى كفلين من نعمته فى الدنيا والآخرة، وهما المرغوب إلى الله فيهما بقوله: ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ﴾[٤] . وقيل بل أراد النعمة المتوالية المتكفَّلة بكفالته، والتثنية على حد ما ذكر فى سعديك ولبيك[٥] .

والكفالة: ضم ذمة الكفيل إلى ذمة الأصيل فى المطالبة[٦] . وفى الحديث "أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة له ولغيره"[٧] والكافل القائم بأمر اليتيم المربى له، وهو من

---

[١] "مختار الصحاح" للرازى صـ٥٧٥. والآية من سورة آل عمران (٣٧).

[٢] سورة "ص" (٢٣)

[٣] سورة "الحديد" (٣٨)

[٤] سورة "البقرة" (٢٠١)

[٥] "بصائر ذوى التمييز" للفيروزبادى جـ٤ صـ٣٦٦ بتصرف. ط وزارة الأوقاف.

[٦] "كتاب التعريفات" للجرجانى صـ١٨٥

[٧] اخرجه البخارى/ كتاب الطلاق/ باب اللعان/ جـ٩ صـ٤٣٩.

وأخرجه مسلم/ كتاب الزهد/ باب الإحسان إلى الأرملة/ جـ١٨ صـ١١٣ (نووى)

الكفيل الضمين، والضمير فى "له ولغيره" راجع إلى الكافل أى أن اليتيم سواء كان الكافل من ذوى رحمة وأنسابه، أو أجنبياً لغيره تكفل به. وكفيل وكافل، وضمين وضامن بمعنى واحد، وأما الكافل فهو الذى كفل إنساناً يعوله وينفق عليه[١] .

ويستخلص من هذه المعانى لكلمة التكافل:

أنه التضامن والتعاون بين شخصين، أو بين جماعة لتحقيق خير أو دفع ضرر. وقد ورد ذكره فى كتاب الله عز وجل وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا المعنى ليس مستحدثاً ولا جديداً بالنسبة للأمة الاسلامية فى عصرنا. **ويمكن أن يعرف التكافل:** بأنه شعور كل مسلم يواجبه تجاه أسرته، وأخيه المسلم والجماعة الاسلامية، بل والانسانية فى كل مجالات الحياة، بقدر جهده واستطاعته، وهو شعور نابع من إيمان عميق بالله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

المفهوم الشرعى لمعنى التكافل:

وهذا المفهوم الذى دلت عليه مادة الكلمة فى اللغة نجده مقرراً فى صريح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة. فمن الأول قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾[٣] . ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم "مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٤] .

---

[١] "لسان العرب" لابن منظور جـ٣ صـ٢٧٨، ٢٧٩ بتصرف

[٢] سورة "آل عمران" (١٠٣)

[٣] سورة "المائدة" (٢)

[٤] اخرجه مسلم/ كتاب البر والصلة.../ باب تراحم المؤمنين.../ جـ٦ صـ١٤٠ (نووى)

من خلال هذه النصوص يتضح دقة المفهوم الشرعى لمعنى التكافل، بـأوجز عبـارة، وأوضح صورة، وأبلغ بيان.

الأدلة الشرعية لنظام التكافل:

وبنـاء علـى المعنـى المتقدم للتكـافل نجد أنـه ركــن مــن أركــان الشــريعة الإسلامية، وقاعدة واضحة من قواعده، منذ بعثة النبى صلى الله عليه وسلم من نحو خمسة عشر قرناً من الزمان، ومن الأدلة الشرعية لنظام التكافل من كتاب الله تعالى قوله: ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن باللــه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتـامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، وأقام الصلاة وأتى الزكاة، والموفـون بعهدهـم إذا عـاهدوا، والصـابرين فـى البأسـاء والضـراء وحيـن البـأس أولئـك الذيـن صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1] . وقوله تعالى: ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا بــه شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذى القربى واليتـامى والمسـاكين، والجـار ذى القربـى، والجـار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمـانكم إن اللـه لا يحـب مـن كـان مختالاً فخوراً، الذيـن يبخلـون ويـأمرون النـاس بـالبخل ويكتمـون مآءاتـاهم اللـه مـن فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً، والذين ينفقون أموالهم رئـاء النـاس ولا يؤمنـون بالله ولا باليوم الأخر ومن يكن الشيطان له قريناً فسآء قريناً، وماذا عليهم لو ءامنـوا بالله واليوم الأخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ ياأيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾[3] .

---

[1] سورة البقرة (١٧٧)

[2] سورة النساء (٣٦،٣٧،٣٨،٣٩)

[3] سورة التحريم جزء من الآية (٦)

ودلالة هذه النصوص القرآنية هى: بيان ما هو مطلوب شرعاً من كل مسلم، وأن البناء الاسلامى كما يشتمل على الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإنه يتضمن الإحسان إلى الوالدين، والبر والنصيحة لكل مسلم، وهو عين التكافل المراد.

ومن السنة النبوية خلاف ما تقدم قوله صلى الله عليه وسلم " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"[١] وقوله صلى الله عليه وسلم "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"[٢]. وقوله صلى الله عليه وسلم "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبك بين أصابعه"[٣] .

ودلالة النصوص النبوية الشريفة لاتخرج عن الدلالة القرآنية لكونها مفسرة له ومبينة له فالتعبير بالمسلم والمؤمن إشارة إلى أركان الإيمان والاسلام التى اتصف بها كل واحد منهما بمقتضى الايمان بالله تعالى، وماعدا ذلك فهى تفسير لمقتضى الأخوة الاسلامية، فتشبيه تماسك أهل الإيمان بالبنيان وتشبيك الأصابع لهو من أقوى الأدلة على تضامن المسلمون سوياً وتكافلهم، وكل ما سيذكر - إن شاء الله تعالى - من الآيات البينات، والأقوال الشريفة فيه الأدلة والبراهين على تأسيس الأمة الأسلامية على أرقى وأرفع ما يمكن من العلاقات الإنسانية.

---

[١] أخرجه مسلم / كتاب البر والصلة/ باب تحريم الظلم .../ جـ١٦ صـ١٣٤،١٣٥ . (النووى)

[٢] أخرجه مسلم /كتاب الإمارة / باب فضل إعانة الغازى/ جـ صـ

[٣] أخرجه البخارى / كتاب الأدب / باب تعاون المؤمنين.../ جـ١٠ صـ٤٤٩،٤٥٠

وأخرجه مسلم/ كتاب البر / باب تراحم المؤمنين/ جـ١٦ صـ١٣٩

تعدد أنواع التكافل الإجتماعى:

يلاحظ أن "التكافل الاجتماعى" بالمعنى المتقدم ليس قاصراً على ميدان دون آخر، أو جانب دون غيره ،فالحقيقة أن من استعرض السنة المباركة يجد مفهوم التكافل يتصف بالشمول لجوانب الحياة المختلفة، والمتعددة والمتنوعة، كالتكافل الأدبى والعلمى والدفاعى والجنائى، والأخلاقى والمعاشى، والعبادى وغير ذلك[١] ولا مغالات فى ذلك، فالبشر فى مجتمعاتهم يحتاج بعضهم إلى بعض فى كل شئون الحياة. قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة .. بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فحقيقة التكافل فى السنة النبوية ليس قاصراً على الناحية المعاشية كما هو مفهوم "التكافل العصرى" والذى يعبر عنه "بالتكافل الاجتماعى"، بل هو شامل لنواحى الحياة المادية والمعنوية الروحية والجسدية. فى حين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى بمعنى أن النصيحة لابد أن يكون دافعها الايمان بالله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فى النصيحة لكل مسلم، وكذلك كفالة اليتيم، وتقديم العون للمحتاجين وهكذا. فتشبيه النبى صلى الله عليه وسلم كفالة المسلمون بعضهم بعضاً بالجسد الواحد، فى هذا التشبيه دلالة على أن التكافل بينهم ليس قاصراً على جانب دون آخر. روى البخارى بسنده قول النبى صلى الله عليه وسلم "ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٢] وفى رواية لمسلم "المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله"[٣] .

وقد رأى النووى شمول مفهوم التكافل فقد أخذ من الحديث تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم والملاطفة، والتعاضد فى غير إثم

---

[١] راجع "اشتراكية الاسلام" أ.د/ مصطفى السباعى صـ١٨٣/١٧٨. ط دار ومطابع الشعب ١٣٨١هـ/١٩٦٢م

[٢] أخرجه البخارى / كتاب الأدب / باب رحمة الناس / جـ١٠ صـ٤٣٨. وسبق تخريجه عن الامام مسلم

[٣] وأخرجه مسلم / كتاب البد/ باب تراحم المؤمنين .../ جـ١٦ صـ١٤٠.

ولا مكروه، وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعانى إلى الأفهام وقوله "تداعى لها سائر الجسد" أى دعا بعضه بعضا إلى المشاركة فى ذلك[١] .

ومما يدل على شمول مفهوم التكافل الاجتماعى فى شريعة النبى صلى الله عليه وسلم ما مر بنا آنفا من قوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾[٢]. والتعاون إعانة بعضهم بعضاً، والكلمة دالة على معنى التكافل والتضامن لتحقيق أمرما وغاية متشودة، وحينما أراد المولى عز وجل أن يبين مجال هذا التعاون عبر بكلمتين جامعتين، الأولى "البر" وهى التوسع فى فعل الخير، والكلمة جامعة لأنواعه، وقد وصف الله تعالى بها نفسه فقال تعالى: ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾[٣] ، وحين بَرَّ بعبده أسبغ عليه من أنواع النعم التى لا تحصى فقال ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٤] . وجاء "البر" بمعنى التوسع فى الإحسان، وطيب العشرة ومكارم الأخلاق قال تعالى: ﴿وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً﴾[٥]. وجاء البر بمعنى البذل والانفاق فقال تعالى: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[٦] . وقد عدد الله تعالى أنواعاً للبر فى آية سورة البقرة، من أول قوله ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب... إلى قوله أولئك هم المتقون﴾[٧] .

---

[١] راجع "شرح مسلم للنووى " جـ١٦ صـ١٣٩ وما بعدها

[٢] سورة المائدة (٢)

[٣] سورة الطور (٢٨)

[٤] سورة إبراهيم (٣٤)

[٥] سورة مريم (٣٢)

[٦] آل عمر ان (٩٢) (راجع "بصائر ذوى التميز" جـ٢ صـ٢١١ وما بعدها)

[٧] سوة البقرة (٤٤) وتقدم زكرها كاملة

وثانى الكلمتين: (التقوى) وهى لا تقل عن سابقتها - البر – فى المعنى قول الله عز وجل: ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾[١] ، فمن اتقى الله حق تقاته واهتدى بكتابه جمع الفضائل الاعتقادية والنفسية والأخلاقية. إذن ففى آية التعاون دلالة على سعة مفهوم معنى "التكافل الاجتماعى".

ومما يدل أيضاً على الشمول فى "التكافل" عند الإطلاق: أن التعاون والتضامن والتكافل هو ما تقتضيه الأخوة الايمانية التى عبر عنها رب العزة بقوله: ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾[٢] . ويفسر النبى صلى الله عليه وسلم مقتضيات هذه الأخوة بوسائل متعددة، منها ما أخرجه مسلم بسنده عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"[٣] . وهذا القول الشريف حث على التكافل فى جوانب متعددة، فحث على التعاون فى الحاجات، وتفريج الكرب، والستر على ذوى الهيئات ممن ليس معروفاً بالافساد، ويدخل فى الحاجة، وتفريج الكرب ما كان بالمال، أو الجاه والنفوذ، أو المشاروة والرأى، وقرن ذلك بالثواب عند الله.

إذن فالتكافل فى السنة المباركة التى هى امتداد لكتاب الله تعالى لا يتوقف عند خصلة واحدة، إنما هو التكافل الشامل لمعنى الأخوة الايمانية للتعاون على البر والتقوى، والتمسك بمكارم الأخلاق بين أفراد الأمة الاسلامية، بل ومراعاة ذلك فى الإخوة الانسانية، وضرورى أن يفهم جماعة المسلمين ذلك، حتى يدركوا تماماً أن السنة الشريفة هى المخلص للإنسانية من مشاكلها المتنوعة، وأن ننظر إلى السنة

---

[١] سورة البقرة (١،٢)

[٢] سورة الحجرات (١٠)

[٣] سبق تخريجه .

أيضاً نظرة ملؤها الثقة والإيمان بالله تعالى بالقدرة على رقى الأمـة وتقدمهـا، وفيمـا يأتى مزيد بيان وتأكيد وإيضاح إن شاء الله تعالى.

أضواء على أنواع التكافل:

التكافل فى الغالب مرتبط بالمشكلات التى تشغل جماعة المسلمين، ويحياها الناس، حياة تكتنفها المشقة والمعاناة، وتتطلب كل مشكلة حلا تصفو به الحياة، وتنعم به الأمة فى رحاب الايمان. كما أن هذه المشكلات ليست فى مرتبة واحـدة بـل يعلـو بعضها فوق بعض، مع الترابط فيما بينها. وعند معالجة السنة المباركة للمشكلة نجـد أنها تعمل على القضاء على أسبابها الكامنـة وراءهـا. نـرى ذلـك واضحـاً فيمـا رواه أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار أتى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله، فقال: أما فى بيتك شئ؟ قال: بلى حِلْسٌ[١] نلبس بعضه، ونبسط بعضـه، وقعـب[٢] نشـرب فيـه من الماء، قال: ائتنى بهما، فأتاه بهما، فأخذهمـا رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلم بيده، وقال: من يشترى هذين؟ قال رجل: أنـا آخذهما بدرهـم، قـال: مـن يزيـد علـى درهـم؟ مرتيـن أو ثلاثـاً، قـال رجـل أنـا آخذهمـا بدرهميـن، فأعطاهمـا إيـاه، وأخـذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصارى وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشـتر بالآخر قَدُّوماً فأتنى به، فأتاه به، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودا بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل يحتطـب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشر دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعامـاً، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير لك من أن تجئ المسـألة نكتـة فـى وجهـك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذى فقر مدقع، أو لـذى غـرم مفظـع، أو لذى دم موجع[٣] .

---

[١] الحلس: حلس البيت كِسَاءٌ تبسط تحت حر الثياب.

[٢] القعب: إناء يشرب به الماء .

[٣] أخرجه أبو داود / كتاب الزكاة / باب ما تجوز فيه المسألة / جـ٢ صـ١٢٠، ١٢١

وهكذا يتسع فكر النبى صلى الله عليه وسلم حتى يتعقب ما يعرض عليه من مشكلات فيعالجها من أصولها علاجاً ناجعاً، ومن هنا كانت السنة الشريفة أفضل ماتعالج به القضايا العصرية مهما وصلت درجة أزمتها أو تعقيدها، لتصبح أساساً قوياً نبنى عليه الحضارات فى إطمئنان وثقة بالنجاح والتوفيق بإذن الله تعالى. وتفوق معظم حضارات الأرض تقدماً ورقياً.

ومن الخصائص التى تكفل للسنة المباركة نجاحها، ما تتصف به من شمول للبعد الزمانى والمكانى ومراعاة مطالب الدنيا والأخرة، وكل هذا يقتضى عنصراً أساسياً ينبغى التنبيه إليه فى كل موقف وحال، ألا وهو الايمان بالله عز وجل، وبأنه واحد لا شريك له، موجود فى كل زمان ومكان، لا تغيب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض، ولا يقع فى ملكه إلا ما أراد سبحانه عز وجل والأخذ بمنهج السنة فى التكافل، أفضل ما تعالج به قضايا العصر، وعلة ذلك بالتحليل العقلى البسيط والأقرب للفهم، أن السنة هى وحى من عند الله تعالى، فلم ينطق النبى صلى الله عليه وسلم عن هوى أو شهوة ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1] ، إنما هو توجيه الله تعالى لعباده وهذا التوجيه الإلهى قائم على علم الله تعالى بما يصلح عباده.

وعلى هذا فمنهج السنة المباركة فى التكافل وغيره، لإقامة مجتمع سليم، لم يكن منهجاً تولته العواطف والأهواء والميول البشرية الفردية أو الجماعية، فإنما هو منهج قائم على الرؤية الايمانية التى هى مجال اليقين. فأهداف السنة المباركة فى كل ما نطقت به وشرعته واضحة جلية تقصد إلى غايتها دون إلتواء، أو إعوجاج، فنقطة البدء الايمان بالله تعالى وهى معلومة، وغايتها تضئ فوق الرؤس، كما أنها تربط بين الأسباب والمسببات، وإذا كان قد حدث فى حياتنا المعاصرة، تغيرات فكرية بعيدة المدى عن صدر الإسلام، فإن ذلك لا ينفى تلك الحقائق الثابتة عند ذوى الألباب الإيمانية، فهى باقية وثابتة، ومعيار تقاس به التغيرات الفكرية الصالح منها

---

[1] سورة النجم (٤)

والضار، ومنهج السنة فى التكافل يمتاز بالملائمة لجميع العصور والبيئات، ما دامت وجدت الأرض الطيبة التى تنمو بها، وتعطى ثمارها، وليست بأرض قيعان، يبين ذلك النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: "مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه الله بما بعثنى به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به"[1] .

يبين النووى معانى الحديث ومقصودة بأنه تمثيل الهدى الذى جاء به صلى الله عليه وسلم بالغيث، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس:

فالنوع الأول: من الأرض ينتفع بالمطر فيحيى بعد أن كان ميتاً، وينبت الكلأ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس فيبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع.

والنوع الثانى من الأرض: مالا تقبل الإنتفاع فى نفسها لكن فيها فائدة، وهى إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم فى العقل يستنبطون به المعانى والأحكام، وليس عندهم إجتهاد فى الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتى يأتى طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع، والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

---

[1] أخرجه البغوى فى "المصابيح" / كتاب الايمان / باب الاعتصام بالكتاب والسنة / ط صـ١٥٣،١٥٤

وأخرجه البخارى/ فى كتاب العلم / باب فضل من عَلِمَ وعَلّم / ط صـ١٨٥،١٨٦ (ابن حجر)

وأخرجه مسلم / كتاب الفضائل / باب بيان مثل ما بعث النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم / جـ ١٥ صـ٤٦

والنوع الثالث من الارض: السبخة التى لا تنبت ونحوها فهى لا تنتفع بالماء ولاتمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم[١] . إذن فدرجة الانتفاع بما وردت به السنة المباركة، إنما يرجع إلى الأرض والبيئة، فصفاء النفس من الأكدار والأغيار، وانشراح الصدر لقبول الهدى من أهم عوامل الانتفاع بها، وما فيها من هداية وعلم وعمل لا ينقضى ولا يتغير الإ إلى الرقى والتقدم، وقد تضمنت أسمى الأهداف، وأنسب الطرق المؤدية إليه، وما يعين على الوصول إلى الهدف من وسائل.

وفيما يلى نتعرف على موقف السنة الشريفة من بعض جوانب التكافل وأسلوبها فى معالجتها:

أولاً: التكافل الأدبى:

التكافل الأدبى: الأدب هو معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ[٢] . ويعرف بأنه استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً. وهو أيضاً الأخذ بمكارم الأخلاق، أو هو الوقوف مع المستحسنات[٣] .

فالتكافل الأدبى على هذا: شعور كل واحد من المسلمين تجاه الآخر بوجوب دلالته على ما يحترز به عن الوقوع فى الخطأ، وما يحمد قولاً وعملاً، وأن يتمسك بمكارم الأخلاق، فيترك كل قبيح ويأخذ كل حسن حسبما دل عليه الشرع. وطبيعى أن يحب الإنسان كل ما يحمد عليه، ولذلك جمع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فى قوله "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٤] .

---

[١] "شرح صحيح مسلم للنووى" جـ١٥ صـ٤٧،٤٨ / راجع أيضاً "فتح البارى" لابن حجر ط صـ١٨٦،١٨٧

[٢] "كتاب التعريفا ت" للجرجانى صـ١٥ بتصرف

[٣] "فتح البارى" جـ١٣ صـ٣ بتصرف

[٤] أخرجه مسلم / كتاب الإيمان/ باب من خصال الإيمان ... / جـ٢ صـ١٦ (النووى)

فشعور المسلم نحو أخيه بالحب والعطف، يؤدى بالضرورة إلى التكافل فيما بينهم للوصول إلى أمة تسودها مكارم الأخلاق وتصبح سمتها الغالبة عليها إن لم تكن شاملة لكل أفرادها فيفرح المسلم لفرح أخيه، ويهتم لهمه، ويحزن لحزنه، ويرشده إذا غوى، ويهديه إذا ضل ويرحمه عند ضعفه، فيعامله بما يحب أن يعامل به، ويكره له ما يكرهه لنفسه، ويخلص له النصح إذا استنصحه، ويسعى فى اصلاح ذات البين، سائلين الله تعالى لأمة المسلمين المغفرة والهداية كما أرشد الله إلى ذلك بمدحه القائلين: ﴿ ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين ءامنوا ﴾[1] .

ومن مظاهر التكافل الأدبى فى السنة المباركة - إضافة إلى ما تقدم - النهى أن يسب الرجل والديه، بنفسه، أو يكون سبباً لذلك، أخرج البخارى بسنده عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرّجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه"[2] . فمن أكبر الكبائر عند الله تعالى يبينها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله سالف الذكر، فشتم الرجل والديه من أكبر الآثام التى حذرت السنة منها، والحال يقتضى التكافل فى بيان عظم حق الوالدين، والإحسان إليهما وترك عقوقهما، وطاعة أمرهما.

ومن مظاهر التكافل الأدبى صلة الأرحام فقد أخرج البخارى فى كتاب الأدب بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سره أن يبسط فى رزقه، وينسأله فى أثره فليصل رحمه"[3] . وفى هذا الحديث إخبار النبى صلى الله عليه وسلم بالبركة فى المال والأجل لمن وصل رحمه، وهذا الخير محبب إلى كل إنسان، فالدعوة إلى صلة الرحم هى ذات

---

[1] سورة الحشر (١٠) جزء منها

[2] أخرجه البخارى / كتاب الأدب / باب لا يسب الرجل والديه/ جـ١٣ صـ٧ (ابن حجر)

[3] أخرجه البخارى / كتاب الأدب / باب من يبسط له فى الرزق لصلة الرحم/ جـ١٣ صـ٢٠ (ابن حجر)

خير مـزدوج لكل من الطرفين، الواصل والموصول، فهذا الخير داع إلى بعث التكافل فى تحقيقه.

ومن مظاهر التكافل الأدبى ترك الفحش ومساوئ الأخلاق، وتربية الأولاد على محاسنها وتعليمهم الصدق الذى يهدى إلى البر الجامع للخير فعن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: " إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[١] .

فالتكافل الأدبى يدعو إلى تربية الأبناء على هذه الخصلة، فالصادق ممدوحاً، والكاذب مذموماً، وهذه المظاهر المذكورة فى التكافل الأدبى ما هى إلا قطرة من غيث التوجيهات النبوية فى هذا الباب[٢] .

ومن أعظم أبواب التكافل الأدبى المحافظة على كرامة الفرد وحريته، فأشد أنواع الذل والمهانة والاستحقار الذى يقع بالانسان فى حياته الدنيا عبودية الانسان للإنسان، فالعبودية لله تعالى وحده، الخالق لا شريك له، وحينئذ تكون العبودية عزة ورفعة وشرف. وجوهر السنة الشريفة يؤكد هذا المعنى ـ بعد كتاب الله عز وجل ـ كما تؤكد حق كل إنسان فى الحرية وتكافؤ الفرص.

وحين جاء الإسلام كانت مسألة الرق من أظهر معالم الجاهلية، وأكثرها إنتشاراً، فوقفت السنة موقف المناهض لهذه الظاهرة التى تفاقمت، وعالجتها بحكمتها المعهودة، فالمؤمنون إخوة بنص كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكيف يرتضى الأخ عبودية أخيه، وكيف يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان وهو يرفل فى أغلال الرق والاستعباد، فكان للتكافل الأدبى فى السنة أثره فى القضاء على هذه الظاهرة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " من ملك ذا رحم محرم منه

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب الأدب / باب ما ينهى عن الكذب / جـ١٣ صـ١٢١، ١٢٢ (ابن حجر)

[٢] راجع أبواب الأدب فى كتب السنة المصنفة على الأبواب، وباب البر والصلة والآداب فى صحيح الامام مسلم.

فهو حر"[١] . ويجعل النبى صلى الله عليه وسلم العتق عتق من النار فيقول عليه الصلاة والسلام: "من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار حتى فرجه بفرجه"[٢] .

ويأتى أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول: علمنى عملاً يدخلنى الجنة، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة، وفك الرقبة، قال: أوليس واحداً؟ قال: لا عتق النسمة أن تَفَرَّدَ بعتقها، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها... "[٣]. وقد كان ذلك امتدادطبيعى لنحو قول المولى عز وجل ﴿ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ،فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ماالعقبة فك رقبة﴾[٤] .

وقد أرشد الله عز وجل إلى مكاتبة الأرقاء بقوله عز وجل: ﴿والذين يبتغون الكتاب، مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وءاتوهم من مال الله الذى ءاتاكم﴾[٥] .

ومن دلالات هذه الآية الكريمة إرشاد المسلم إلى تجاوز أمر الموافقة على المكاتبة إلى مساعدته فى أداء ما كاتبه عليه، وعلى المسلمين أيضاً التعاون معه، ذهب

---

[١] أخرجه أبو داود/ كتاب العتق/ باب فيمن ملك ذا رحم محرم/ جـ٤ صـ٢٦.

ـ وأخرجه الترمذى / كتاب الأحكام / باب ما جاء فيمن ملك ذا رحم / جـ٣ صـ٦٤٦

ـ وأخرجه ابن ماجه / كتاب العتق / باب من ملك ذا رحم / جـ٢ صـ٨٤٣

ـ وأخرجه أحمد جـ٥ صـ٢٠

[٢] أخرجه البغوى فى المصابيح / كتاب العتق / باب / جـ٢ صـ٤٨٤

ـ والحديث أخرجه البخارى/ كتاب كفارات الإيمان / باب قوله تعالى" أو تحرير رقبة. / جـ١١ صـ٥٩٩.

ـ وأخرجه مسلم / كتاب العتق/ باب فضل العتق / جـ١٠ صـ١٥١.

[٣] أخرجه البغوى فى المصابيح / كتاب العتق / باب / جـ٢ صـ٤٨٥ جزء ثالث.

ـ وأخرجه أحمد جـ٤ صـ٤٩٩

[٤] سورة البلد (٨ ـ ١١)

[٥] سورة النور جزء من آية (٣٣).

إبراهيم النخعى ويريدة بن الحصيب الأسلمى وقتادة فى قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم قالوا: حث الناس عليه مولاه وغيره[١] .

وفى أسلوب هذه الآية: الترغيب فى التكافل وعدم التقاعس بما لا يغيب عن عقل كل لبيب فإنه يقول: تضامنوا معهم بهذا المال الذى هو فى الحقيقة والأصل مال الله، "وءاتوهم من مال الله الذى ءاتاكم"، وسارعت السيدة عائشة رضى الله عنها فى فك الرقاب أخرجه مسلم بسنده عن عائشة قالت: دخلت عَلَىّ بَرِيرَةُ فقالت: إن أهلى كاتبونى على تسع أواقٍ فى تسع سنين فى كل سنة أوقية فأعينينى فقلت لها إن شاء أهلك أن أعدها لهم عدة واحدة وأعتقك، ويكون الولاء لى ففعلت، فذكرت ذلك لأهلها، فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم، فأتتنى فذكرت ذلك قالت: فانتهرتها فقالت لاها الله[٢] إذا قالت: فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، فقال اشتريها وأعتقيها فإن الولاء لمن أعتق ففعلت ..."[٣] . الحديث.

وبذا نجد أن السنة المطهرة قد استطاعت القضاء على ذل الإنسان للإنسان، فى مجتمع كان يجعلها ركناً أساسياً، وعنصراً هاماً من عناصر حياته، فلا يخطر بباله أن يستغنى عن الرق يوماً من الأيام أو أن يتخلى عنه، وكان لأسلوب التكافل الذى دعت إليه السنة مكانة فى القلوب والأرواح التى غمرها النور الإيمانى.

هذا بالإضافة إلى الوسائل الأخرى من كفارة اليمين، أو القتل الخطأ أو الظهار، أو تشريع النهى عن بيع أمهات الولد.. الخ آخر هذه الطرق، التى وجهت إليها السنة مبينة عن المولى عز وجل، أو منتقلة بأمر الله تعالى بالتشريع.

---

[١] راجع "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير جـ٣ صـ٢٨٨

[٢] "لاها الله" معناه لا والله ما أقسم به. "شرح صحيح مسلم للنووى" جـ١٠ صـ١٤٥.

[٣] أخرجه مسلم / كتاب العتق / باب أن الولاء لمن أعتق / جـ١٠ صـ١٤٥ جزء الحديث.

ولبعض المعاصرين[١] قوله: وهذه الناحية قد انقرض أفرادها بانقراض الرق الذى يتشوف إليه الاسلام، ولكن فيما أرى قد حل محله الآن رق هو أشد خطراً منه على الانسانية، ذالكم هو استرقاق الشعوب فى أفكارها، وفى أموالها، وسلطانها وحريتها وبلادها، كان ذاك رق أفراد يموت بموتهم، وتبقى دولهم حرة رشيدة، ولها من الأمر والأهلية ما لسائر الأحرار الراشدين، ولكن هذا رق شعوب وأمم، تلد شعوباً وأمماً هم فى الرق كآبائهم، فهو رق عام دائم، يفرض على الأمة بقوة ظالمة غاشمة!!

إذن فما أجدر هذا الرق بالمكافحة والعمل على التخلص منه، ورفع ذله عن الشعوب، لا بمال الصدقات فقط، بل بكل الأموال والأرواح، وبذلك نعرف مقدار مسئولية أغنياء المسلمين عن معونة الشعوب الاسلامية.

ثانياً: التكافل فى صيانة الأخلاق من الفساد:

تعتبر السنة النبوية المطهرة جماعة المسلمين مسئولين عن صيانة الأخلاق من الفساد والفوضى والانحلال والإباحية، فينبغى عليهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وليس فى ذلك تجاوز أو بغى أو اعتداء على الحريات الشخصية، فلو عَمّ الفساد لهلكت الأمة، كما قال تعالى: ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[٢]. نعوذ بالله من غضب الله. وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم العرب من الفتن لأنهم أول من دخل فى الاسلام، وللانذار بأن الفتن ـ كما يقول شيخ الاسلام ـ إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم[٣]. أخرج البخارى بسنده عن زينب ابنة جحش رضى الله عنهما قالت: استيقظ النبى

---

[١] الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت "الاسلام عقيدة وشريعة" صـ١٠٤ ط الثانية عشر ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ ط دار الشروق

[٢] سورة الاسراء (١٦)

[٣] "فتح البارى" جـ١٦ صـ١١٧

صلى الله عليه وسلم من النوم محمراً وجهه يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، (وعقد سفيان تسعين أو مائة) قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث[١]. لهذا وخشية من النبى صلى الله عليه وسلم على أمته خير أمة أخرجت للناس أوجب عليها التكافل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. قال صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكر فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[٢] . وقال صلى الله عليه وسلم "والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده ثم لَتَدْعُنَّهُ فلا يستجاب لكم"[٣]. لقد حث النبى صلى الله عليه وسلم وحرض على الاهتمام بهذه الخصلة، ودوام المحافظة عليها، لأن الله عز وجل قد لعن بنى اسرائيل حين تركوها فقال عز وجل: ﴿لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[٤]. ويبين النبى صلى الله عليه وسلم ذلك القول الربانى بقوله: "إن أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم " إلى قوله (فاسقون) . ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتاطرُنه على

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب الفتن / باب قول النبى صلى الله عليه وسلم: ويل للعرب ... / جـ١٦ صـ١١٧،١١٨ (فتح).

[٢] أخرجه مسلم / كتاب الايمان / باب كون النهى عن المنكر ... / جـ١ صـ٦٩.

[٣] أخرجه البغوى فى المصابيح / كتاب الأدب / باب الأمر بالمعروف / جـ٣ صـ٤٠٨.

- وأخرجه الترمذى / كتاب الفتن / باب ما جاء فى الأمر بالمعروف / جـ٤ صـ٤٦٨

- وأخرجه أحمد / جـ٥ صـ٣٨٨.

[٤] سورة المائدة (٧٨،٧٩)

الحق أطراً[١]، ولتقصرنه على الحق قصراً. وفى رواية سالم عن أبى عبيدة عن ابن مسعود "أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم[٢].

ويذهب النبى صلى الله عليه وسلم مذهباً عظيماً فى بيان هذه الصورة التضامنية، وكفالة المسلمين بعضهم بعضاً، فيضرب هذا المثل الرائع للإقناع تارة، وأخرى للتحذير من ترك التكافل فى إصلاح الأخلاق، يقول عليه الصلاة والسلام: "مثل القائم على حدود الله تعالى، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: إنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيدهم نجوا ونجوا جميعاً"[٣]. وعلى هذا ففى التكافل الأخلاقى يحصل النجاة للأمة وإلا هلك الفاسد بفساده، والساكت برضاه، ويلاحظ فى هذه النصوص النبوية الشريفة مدى إبداع النبى صلى الله عليه وسلم، فى أسلوبه الذى تنوع بين الترغيب والترهيب وضرب الأمثال لإيضاح المعنى فى ذهن السامعين.

فمكارم الأخلاق إحدى مقاصد البعثة النبوية، ولن يكون تصويراً أبدع مما قاله جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه حين خرج ومن معه فراراً بدينهم من أذى قريش وطغيانهم، وأرسلت قريش فى طلبهم لمزيد من العذاب، فوقف جعفر بن أبى طالب أمام ملك الحبشة موطن هجرتهم الأولى قائلاً: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة. ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف ،فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه، وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة

---

[١] أطراً : أى جبراً

[٢] أخرجهما أبو داود / كتاب الملاحم / باب الأمر والنهى / جـ٤ صـ١٢١،١٢٢.

[٣] أخرجه البخارى/ كتاب الشركة / باب هل يقرع فى القسمة ... / جـ٨ صـ٥٨.

الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً... الخ[١] .

هذا هو واقع الحال قبل الاسلام وبعده، وكم كان جهاد النبى صلى الله عليه وسلم فى نشر مكارم الأخلاق، والترغيب فيها طلباً لنقاء المجتمع من الفساد، والفوضى والانحلال، وحرصاً على بقاء الفطرة صافية نقية، وإخلاص السريرة لله تعالى. ومن نظر فى السنة لأيقن أن كل ما حُرِّمَ على المسلم، إنما هو مخالف لمكارم الأخلاق، والآداب النفسية.

إن التكافل الأخلاقى مصدر عظيم للنهوض بالحياة الإجتماعية إلى المستوى الرفيع، والرقى والحضارة والتقدم، خاصة إذا سلك الدعاة مسلك النبى صلى الله عليه وسلم، منطق هادئ، وقلب عقول لاتغيب عنه حقيقة علمية، مهما تطورت الأمم، وتقدمت معارفها، واتسع نطاق بحثها، ومكتشفاتها، ذلك لأنه دين ممتد، فدعوته صلى الله عليه وسلم متصلة العطاء، وارفة الظلال، دائمة الحياة والنضارة والبهاء، تقصد إلى الهدف فى قوة خارقة، وليس هذا بالكثير على من آتاه الله تعالى جوامع الكلم، ومقاليد الحكمة، وصدق الحديث.

فلو تدبر علماء الفلسفة والإجتماع، وعلماء الطبيعة أقوال النبى صلى الله عليه وسلم بعين البصيرة والانصاف لخروا سجداً لله تعالى، وما وسعهم إلا التسليم التام لرسوله صلى الله عليه وسلم.

فمن الحقائق الثابتة عند هؤلاء العلماء وغيرهم: أنه لا ترقى فى أمة من الأمم إلا بتكاتف أفرادها وتعاونهم، وفهم هذه الحقيقة من أكبر عوامل التقدم.

وبناء على هذه الحقيقة فالتكافل الأخلاقى فى السنة لم يرد كشئ عابر وإنما نجد فى كل قول من أقوالها أو مسلك من مسالكها تؤكد هذه الحقيقة، حتى أجمع

---

[١] راجع "مختصر سيرة ابن هشام" جـ١ صـ٢١٣ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٤١٣-١٩٩٣م / "البداية والنهاية" لابن كثير جـ٣ صـ٦٦/٧٥.

العلماء بناء على الأقوال النبوية وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم يخالف فى ذلك سوى بعض الروافض، فقال إمام الحرمين: لا يكترث بخلافهم فى هذا فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء، ووجوبه بالشرع لا بالعقل[١].

وأما قوله تعالى: ﴿ ياأيها الذين ءامنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[٢]. فمراد الآية ـ والله أعلم ـ أن من قام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولم يستجب له، فلا إثم عليه، ولا يضره ذنب غيره كما قال تعالى: ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾[٣].

لقد بكى أبو سعيد الخدرى فى زمانه حين روى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته: "ولا تمنعن أحدكم هيبة الناس، أن يقول بحق علمه. وفى رواية: إن رأى منكراً أن يغيره، فبكى أبو سعيد وقال: قد رأيناه فمنعتنا هيبة الناس أن نتكلم فيه"[٤]. ومما يثير العجب ما قال النووى وهو من علماء القرن السابع الهجرى ولد فى (٦٣١): والنهى عن المنكر قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه فى هذه الأزمان ـ يعنى عصره ـ إلا رسومه". وهو عصر كان هو فيه.

إذن فما نقول فى زماننا ونحن نرى إختلاف الأخلاق فى نحو أقل من نصف قرن من الزمان بدرجة تثير الأسى والحزن. نعم: الخير فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وسوف يظل بجهد ورثته من العلماء المخلصين إلى يوم الدين، ولكن اندلاع لهيب السفور والإختلاط والمجانة، وضحايا الشهوات، وصرعى المنكرات، مما يندى له الجبين، فنحن فى مسيس الحاجة إلى تكافل أخلاقى فى طول البلاد

---

[١] راجع "شرح صحيح مسلم للنووى" جـ٢ صـ٢٢

[٢] سورة المائدة (١٠٥)

[٣] سورة الطور (٢١)

[٤] أخرجه البغوى / كتاب الآداب / باب الأمر بالمعروف / جـ٣ صـ٤١١ جزء الحديث.

ـ وأخرج الحديث الترمذى / كتاب الفتن / باب ما جاء ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ../ جـ٤ صـ٤٨٣ وقال (حسن صحيح).

ـ وأخرجه أحمد جـ٣ صـ٦١.

وعرضها لتنبيه الناس من سباتهم العميق، وصموداً ضد دعاة الانحلال، وانصار الفوضى، وإخوان الشياطين الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. ومما ينبغى التنبه إليه أن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة أفضل الأساليب فى تحقيق المطلوب، وهكذا المنهج النبوى الذى تلقاه عن المولى عز وجل فى قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[١].

فالتخلى عن العنف والغلظة والجفاء، والاحراج، وتحرى الوداعة والعطف، فى الدعوة أحرى بالقبول والاستجابة قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم..﴾[٢]. والقدوة فى التكافل بمنزلة عصا موسى عليه السلام، وبيان محمد خير الأنام.

ومن مظاهر التكافل الأخلاقى "النصيحة" التى جعلها النبى صلى الله عليه وسلم "الدين" كله. روى تميم الدارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة، "ثلاثاً"، قلنا: يارسول الله لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم"[٣]. ففى الحديث صورة لتكافل عام أخلاقى لا يتوقف عند جهة واحدة، ولكل طبقة ما يناسبها.

إن الحرية التى يُنَادى بها فى أوطاننا يحمد عليها ولاة الأمور، وأعتقد أنها لا تعنى بعداً عن الدين وأخلاقه، ولا تعنى إنطلاقاً دون حدود يتوقف المسلم عندها، وأخطأ من فهم غير ذلك ـ وما أكثرهم ـ فالفساد الأخلاقى الذى يقتضى النصيحة، والذى استشرى بين العباد إنما يرجع إلى الخروج عن تعاليم السماء، ونبذ الحياء الذى لا يأت إلا بخير، والانسلاخ من القيم والمكرمات، والجرى وراء تقليد

---

[١] سورة النحل (١٢٥)

[٢] سورة آل عمران (١٥٩)

[٣] أخرجه البغوى فى "المصابيح" / كتاب الأدب/ باب الشفقة والرحمة /جـ٣ صـ٣٦٧

ـ والحديث أخرجه مسلم / كتاب الايمان / باب بيان أن الدين النصيحة / جـ١ صـ٧٤.

المجتمعات غير الاسلامية فى سلوكياتها التى زلزلت أركان الفضيلة بل وزخرفت الرذيلة فألبستها رداء التقدم والحضارة، ونحو ذلك من الألفاظ المعاصرة. والسنة المطهرة بريئة من كل شئ خالف شرع الله تعالى. وهذه الصورة تثبت حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى الحث على التكافل والتناصح.

ومما يكاد يثلج الصدر ـ ونسأل الله التوفيق ـ ما ورد فى قرارات المؤتمر الاسلامى الثالث لوزراء الاعلام فى ختام إجتماعاته التى كان فى مقدمتها ضرورة ابراز التضامن الاسلامى فى الدفاع عن القضايا الاسلامية والسياسية والاقتصادية، والثقافية والاعلامية، وتوجيه الاعلام بما يكفل التصدى للحملة الظالمة التى تستهدف تشويه صورة الاسلام والمسلمين، وإبراز قيم الاسلام السمحة، وتعزيز التعاون للإرتقاء بامكانات وآراء مؤسسات الاعلام بالدول الاسلامية، ومواكبتها للتطورات فى مجال الاتصالات، أضف إلى ذلك إنشاء اتحاد إسلامى للصحفيين فى الدول الاسلامية[1] .

فالأمة الاسلامية فى مسيس الحاجة إلى تزكية مثل هذا التكافل والتضامن الإعلامى لتقويم الأخلاق، فإن الإعلام بأنواعه ذا أثر بالغ فى نفوس النشئ بصفة خاصة.

والحق أن السنة الشريفة ـ بعد كتاب الله تعالى ـ مورد لا ينضب، ونبع فياض يستمد منه الداعية الاعلامى وغيره ما شاء من التوجيهات المشرقة، وهذا مانرجوه من أقسام الصحافة والاعلام فى الجامعات عامة، وجامعة الأزهر خاصة.

ففى السنة يجد الاعلامى ما يرقق القلوب الجامدة، ويرهف الوجدان، ويشرح الصدر لنور الحق، ففيها القصص الهادف، والأمثال المعبرة، وصور الترغيب والترهيب، فهى تخاطب الكيان الإنسانى جميعه، وتعمل على بناء الشخصية المسلمة المتكاملة، ذات الروح الصافية، وحين يصل التكافل الأخلاقى

---

[1] صحيفة الأهرام عدد ٣٩٦١٧ ـ صادر فى يوم الجمعة ٢٦ من ذى الحجة ١٤١٥/٢٦ مايو ١٩٩٥م

بالمسلم إلى هذا المستوى ـ تكون الأمة بحق خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1] .

الغزو الأخلاقى الخارجى يقتضى الأخذ بمنهج السنة فى التكافل:

عندما باءت الغزوات الحربية من أعداء الاسلام والمسلمين بالفشل، توجهوا إلى نوع آخر من غزواتهم، ألا وهو الغزو الفكرى الذى يعتبر فى نتائجه أخطر من الغزو الحربى، وكل مناه تدمير أخلاق المسلمين ،وعقولهم، وصلتهم بالله، وإطلاق شهواتهم وأهوائهم ترتع فى ربوع الرزيلة، والآثام، يقول "زويمر" رئيس جمعيات التبشير فى مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥م: إن مهمة التبشير التى ندبتكم دول المسيحية للقيام بها فى البلاد المحمدية ليست فى إدخال المسلمين فى المسيحية فإن فى هذا هداية لهم وتكريماً.

إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية، لقد هيئتم جميع العقول فى الممالك الإسلامية لقبول السير فى الطريق الذى سعيتم له، ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام، إنكم أعددتم نشأ لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالى جاء النشئ الإسلامى، مطابقاً لما أراده له الإستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأى أسلوب، حتى أصبحت الشهوات هدفه فى الحياه، فهو إن تعلم فاللحصول على الشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ

---

[1] سورة آل عمران (١١٠)

أسمى المراكز ففى سبيل الشهوات، إنه يجود بكل شئ للوصول إلى الشهوات، أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه[١].

ويقول فى كتابه "الغارة على العالم الاسلامى": إن للتبشير بالنسبة للحضارة الغربية مزيتان، مزية هدم، ومزية بناء: أما الهدم: فنعنى به انتزاع المسلم من دينه، ولو يدفعه إلى الإلحاد، وأما البناء: فنعنى به: تنصير المسلم إن أمكن ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه[٢].

ولآخر يدعى "جب" قوله: لقد فقد الاسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت فى طقوس محدودة وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعى وانتباه، وقد مضى هذا التطور إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، لكن نجاح هذا التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء فى العالم الاسلامى، وعلى الشباب منهم خاصة، كل ذلك نتيجة النشاط التعليمى والثقافى العلمانى[٣].

وغير ذلك من الأقوال التى تؤكد حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى الحث على التكافل الأخلاقى، لينقذ كل مسلم أخاه، قبل أن ينجرف فى الغواية بأشكالها المتلونة بحسب العصور والبيئات، يقول عليه الصلاة والسلام: "ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته..."[٤] فإذا أخذنا الرعاية بالمعنى العام إندرج فيه رعاية المسلم لأخية المسلم.

---

[١] كتاب "دمروا الاسلام بيد أهله" أ. جلال العالم صـ٥٢ ط. دار الاعتصام

[٢] المرجع السابق صـ٥٣

[٣] المصدر السابق صـ٥٣، ٥٤

[٤] أخرجه مسلم / كتاب الإمارة/ باب فضيلة الأمير العادل ../ جـ١٢ صـ٢١٣ (نووى).

نحمد الله تعالى أنهم يعلمون تمام العلم صدق دعوة النبى صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[١] .

وقد حذرنا النبى صلى الله عليه وسلم رؤس الكفر وأرشدنا إلى التكافل فى جهادهم فقال صلى الله عليه وسلم "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"[٢]. فالخطاب فى الحديث بصيغة الجمع يشير إلى التكافل فى التصدى لأعداء الإسلام. إننا نذكرهم فى كل عصر ليستحضروا ما فعل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم حين نزلوا بلادهم يتلون عليهم آيات الله تعالى ويعلمونهم الكتاب والحكمة دون إكراه، عسى بهذه التذكرة أن يهتدوا ويرتفع الحقد من نفوسهم، ويعلموا أن كلمة الله هى العليا، لقد دفع المسلمون عنهم طغيان حكامهم، ونشروا الفضيلة والأخلاق بينهم، ونظموا السلوك الفردى والجماعى.

وخلاصة القول: أن السنة الشريفة دعت إلى التكافل فى الرقى الأخلاقى، وصون الأخلاق من الفساد، وتبعت فى ذلك أساليب متعددة، تارة بالترغيب، فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن الدين النصيحة، وتارة بالترهيب من السكوت على ظلم الظلم، وتارة بصيغة العموم، وأخرى على جهة التفصيل، ككفالة اليتيم والإحسان إليه، والوصية بالجار فكل جار يكفل جاره، وإكرام الكبير ورحمة الصغير، وإزالة الأذى عن الطريق، ولا نبالغ إن قلنا أن فى أداء شعائر الاسلام جماعة دعوة إلى التكافل والتضامن الأخلاقى فى إعلاء كلمة الله تعالى. أخرج البخارى بسنده عن معاوية أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

---

[١] سورة البقرة (١٤٦)

[٢] أخرجه البغوى فى المصابيح / كتاب الجهاد / باب / جـ٣ صـ ٤٦

ـ وأخرجه الدارمى / كتاب الجهاد / باب جهاد المشركين / جـ٢ صـ٢١٣

ـ وأخرجه أحمد / جـ٣ صـ١٢٤

لايزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم، ولا من خزلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك[١] .

ثالثاً: التكافل العلمى:

وضع الله تعالى فى النفوس أموراً لا تحتاج فى إثباتها إلى دليل، فحليم النفوس بها علماً ضرورياً، ولا مبالغة فى القول أن فضل العلم أمر مركوز فى النفوس، غير قابل للإنكار إلا مراءً، أو غواية شيطانية فَيُحَسَّن لهم ترك العلم، والقدح فى المشتغلين به.

ولما قدح أهل الجهل فى العلم شرع العلماء فى بيان فضله، ورفعة قدرة وعلو شرفه. فأعظم دليل على فضيلة الشئ النظر إلى ثمرته، فالعلم غاية اللذات العقلية، خاصة إذا أدى إلى معرفة الحق، وطاعة الله تعالى، فمتى أدى إلى هذه الغاية فتحت له أبواباً لا تفتح لغيره، كما قال تعالى: ﴿.. كذلك نفصل الأيات لقوم يتفكرون﴾[٢] .

فمن أعمل فكره الصافى عن الأكدار دله على طلب أشرف المقامات، والعلم أشرف مكتسب، ولا خصيصة أشرف منه، ما دام تعلقه بالحق جل وعلا. إن العلم فى الاسلام بمنزلة الروح من الجسد، والعقل فى حياة المرء، فالعالم يعرف الطريق، بينما الجاهل ضال عنه، وينكشف له المطلوب إنكشافاً تاماً، فيميز العالم بين الأشياء ويتقن العامل عمله، ويعرف الغاية من وجوده، وكيف يصل إليها؟ ألا وهى عبوديته لله تعالى. ولشرف العلم وفضله نجد آيات القرآن الكريم تظاهرت فى الحث على بذل غاية الجهد فى تحصيله من ذلك قوله: ﴿ يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى ﴿ إنما أمرنا لشئ إذا أردناه .. / حـ١٧ صـ٢١٩ (ابن حجر).

[٢] سورة يونس (٢٤).

أوتوا العلم درجات ﴾[١]. والمعنى: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل، إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية فى الدنيا بعلو المنزلة، وحسن الصيت، والحسية فى الأخرة بعلو المنزلة فى الجنة[٢].

وقال تعالى: ﴿ وقل رب زدنى علماً ﴾[٣] وفى هذه الآية دليل واضح على فضل العلم ومكانته عند الله تعالى، لأنه يترتب عليه قوة الإيمان وشدة العناية بأمره، وطاعته عز وجل، فالله عز وجل لم يأمر نبيه بطلب الإزدياد من شئ ـ كما يقول بن حجر ـ إلا من العلم[٤].

ويبين الله عز وجل مكانة العلماء فى قوله: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وألوا العلم قائماً بالقسط ﴾[٥]. فإنه ثلث بالعلماء، وناهيك بهذا شرفاً ما بعده شرف، وفضلاً جزيلاً، وإجلالاً عظيماً. وقوله تعالى: ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾[٦].

وإجمالاً فإن آيات القرآن الكريم دعت إلى العلم ونبهة إليه بألفاظ متنوعة كالفقه والفهم والتدبر والتفكر، والألباب، مما كان العلم مقدمة له، أو ثمرة من ثماره، ورد ذلك فى مواضع كثيرة، بالإثبات، والنفى، أو وصفاً لله تعالى. فلن يصح تصديق بالله وانقياد له، ما لم يكن صاحبه ذا علم، وكل علم يرفع جهلاً فهو مطلوب شرعاً. إذا كانت هذه منزلة العلم فى كتاب الله تعالى فلا شك أن السنة الشريفة قد سارت على نفس الدرب فى الإشادة به، والحث على طلبه، فمن قرأ مصنفات

---

[١] سورة المجادلة (١١)

[٢] راجع "فتح البارى" ط صـ١٤٩

[٣] سورة طه (١٤)

[٤] "فتح البارى" جـ١ صـ١٤٩

[٥] سورة آل عمران (١٨)

[٦] سورة الرعد (٤٣)

العلماء مثل كتاب "جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغى فى روايته وحمله" للإمام المحدث ابن عمر بن عبد البر القرطبى الأندلسى المتوفى (٤٦٣هـ). من قرأ هذه الكتاب، وما جمع فيه من أحاديث العلم فى أبوابه المختلفة لانكشف له كم كانت عناية النبى عليه الصلاة والسلام بالعلم والتعليم وبيان مكانة العلماء.

كما لا يخلو فى الغالب مصنف فى السنة الشريفة صنف على الأبواب من كتاب جمع فيه مصنفه أبواباً فى العلم تضمن طائفة من الأقوال الشريفة فى بيان فضل العلم، ومنزلته والحث عليه وطلبه، ومن استقرأ مسانيد العلماء لوضع يده على الكثير منها.

ومن أجل ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى بيان منزلة العلماء والفقه فى العلم قوله صلى الله عليه وسلم "من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين.."[١] الحديث. والحديث ظاهر فى بيان فضل العلماء على جميع الناس، وفضل التفقه فى الشريعة على سائر العلوم. وأخرج البخارى فى باب الاغتباط فى العلم والحكمة قول النبى صلى الله عليه وسلم "لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها"[٢]، وأخرج مسلم بسنده فى باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر عن أبى هريرة: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسرعلى معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب العلم / باب من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين / ط صـ١٧٣،١٧٤ (ابن حجر)

[٢] أخرجه البخارى / كتاب العلم / باب الاغتباط فى العلم والحكمة / ط صـ١٧٦،١٧٧

إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[١].

وأخرج مسلم حديثاً جامعاً فى العلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"[٢]. قال النووى فى معنى هذا الحديث: فيه فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم، ووظائف العبادات لاسيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم[٣].

وأخرج البغوى فى "مصابيح السنة" فى قسم الحسان عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[٤].

إذن فالعلم من أهم أركان الشريعة الاسلامية، فمن تدبر آيات الذكر الحكيم وسنة سيد المرسلين لأيقن بالأدلة القاطعة بطلان من زعم أن الإسلام كان حرباً

---

[١] أخرجه مسلم / كتاب الذكر / باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن / جـ١٧ صـ٢١،٢٢ (النووى)

[٢] أخرجه مسلم / كتاب الامارة / باب فضل إعانة الغازى.. / جـ١٣ صـ٣٨،٣٩

[٣] "شرح صحيح مسلم للنووى" جـ١٣ صـ٣٩

[٤] كتاب العلم / باب / جـ١ صـ١٧٠

- والحديث أخرجه أبو داود / كتاب العلم / باب الحث على طلب العلم / جـ٤ صـ٥٧.

- وأخرجه الترمذى / كتاب العلم / باب ما جاء فى فضل الفقه على العبادة / جـ٥ صـ٤٨،٤٩.

- وأخرجه ابن ماجه المقدمة / باب فضل العلماء والحث على طلب العلم / جـ١ صـ٨١

- وأخرجه أحمد جـ٥ صـ١٩٨.

على حرية الفكر، وأنه كبت جميع الحركات العلمية، وكان الفرنسى "آرنست رينان" أبرز دعاة الأوربيين لهذه التهمة بما كتبه فى كتابه "الاسلام والعلم"[١].

فإذا كان الغرب يمجد المنهج العلمى فالاسلام أول من وضع المنهج العلمى وأول من أخذ به هم علماء السنة الشريفة، وعلم الجرح والتعديل ما زال قائماً إلى الآن، يحاجهم دون مغالطة أو مواربة.

والإسلام دين الحجة والبرهان، واليقين لا الظن فقال تعالى فى غير موضع ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً﴾[٣]. ويطلب النبى صلى الله عليه وسلم اليقين فى أحكامه، فعن أنس رضى الله عنه أن يهودياً رَضَّ رأس جارية بين حجرين فقيل لها: من فعل بك هذا؟ أفلان؟ حتى إذا سمى اليهودى، فأومأت برأسها فجئ باليهودى فاعترف فأمر به النبى صلى الله عليه وسلم فرض رأسه بالحجارة"[٤]. والإعتراف سيد الأدلة.

وأخرج مسلم بسنده عن ابى هريرة "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ..."[٥]. الحديث. ففى هذا الحديث نهىٌ عن بناء الحكم على مجرد الظن من غير بناء على أصل ولا نظر واستدلال[٦].

وحوار النبى صلى الله عليه وسلم ماعز بن مالك والغامرية[٧] فى اعترافهما بجريمة الزنا لهو من الأدلة على الأخذ باليقين، خشية أن يكون دافع الاعتراف هو السكر أو الجنون أو ما شابه ذلك مما قد يؤثر فى التصرفات.

---

[١] راجع "روح الدين الاسلامى" أ. عفيف عبد الفتاح طبارة صـ٢٦٦

[٢] سورة البقرة (١١١)

[٣] سورة يونس (٣٦)

[٤] أخرجه البخارى / كتاب الديات / باب إذا أقر بالقتل مرة / جـ١٢ صـ٢١٣.

[٥] كتاب البر والصلة / باب تحريم الظن والتجسس .. / جـ١٦ صـ١١٨ جزء ثالث

[٦] راجع "شرح صحيح مسلم" للنووى جـ١٦ صـ١١٩.

[٧] الحديث أخرجه أصحاب السنن راجع صحيح مسلم / كتاب الحدود / باب حد الزنا جـ١١ صـ١٩٩-٢٠٣.

ولإظهار قيمة التكافل العلمى وأهميته وشدة الحاجة إليه، كان لزاماً أن يتقدم بيان منزلة العلم فى الاسلام، وخاصة من خلال كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتنبيهاً إلى ضرورة أن تكون النهضة العلمية منبثقة من هذين الأصلين. أضف إلى ذلك ما تموج به الأمة من تيارات فكرية متلاطمة، لا تتوقف عند حد، ولا تتخذ من الشريعة إطاراً تتحرك داخله دون الخروج عنه، ليس تقييداً للحرية الفكرية، وإنما لكونه مطلوب شرعاً يتوافق مع الغاية من هذا الوجود.

إن الكثير من هذه التيارات لا يراعى حرمات ولا عقيده ولا أخلاق، فذهب يكتب الكتاب، ويتكلم المتحدثون فى المحافل، ووسائل الإعلام، مطلقين العنان، ناسين أو متناسين أن الله تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم، ويحصى كل شئ فى كتاب مبين. لقد وصلت إباحية بعض الكتاب ويدعى "خليل حنا تارس" أن يقول فى كتابه (العواطف الجنسية صـ٤٨): أما نظام تعدد الأزواج فقد لاحظ "وستر مارك" أنه كان دائماً نظاماً شاذاً، وأنه لم يكن قط إلا بين الشعوب المنحطة التى تتمتع بقسط ضئيل من الثقافة الانسانية. ثم يعلق على ذلك الكاتب ـ خليل ـ بقوله صـ٤٩: أما تعدد الأزواج فمخالف لسنن الطبيعة، ومستلزمات التناسل، ووجوده فى أى بيئة علامة على التدهور والانحطاط[1].

وهذا الكاتب غير جاهل بأن التعدد من نظم الشريعة الاسلامية حيث يقول صـ٤٢: إذ قد يكون السبب فيه أحياناً تقاليد دينيه كما هو الحال فى الدين الاسلامى، ثم يمجد الوحدانية فى الزواج.

فهذا نوع من الثقافة تُطرح مؤلفاته فى الأسواق فى أيامنا دون حياء أو تحرج؟ فأى علم وثقافة هذه التى تنشأ عليها أجيال المستقبل؟ وهل هذه الثقافة مظهر من مظاهر التكافل العلمى الذى يرقى بالأجيال وبالأمم؟ إن فوضى الثقافة والسلوك

---

[1] راجع "العواطف الجنسية" لمؤلفه سالف الذكر ـ مكتبه الاندلس ـ محطة التعاون ـ بالهرم، الطبعة الخامسة.

والدعوة إلى الانحلال والإباحية لا يأتى بخير. فهل عرف الكاتب لم أباح الله تعالى تعدد الزوجات، وفى أى إطار يكون هذا التعدد !!!.

ومن الخطوب الفادحة أن يخرج أحد اساتذة[١] الجامعات المدنية علمانى المذهب فى مجتمع إسلامى إنه يطالب بتعديل بعض نصوص الشريعة ومساواة الرجل والمرأة فى كل شئ حتى الميراث ثم أنكر الحجاب وأباح تبرج المرأة وإبداء زينتها، ثم طالب بتفسير علمانى جديد للدين[٢].

هل معنى حرية الفكر أن تصل الجرأة به إلى هذا الحد، وهو تعطيل حكماً شرعياً (الميراث) نزل من عند الله العزيز الحكيم؟ وهل هذا هو المراد بالعلم، والتكافل العلمى؟ إن العلم لو اتخذ من الأصلين الشريفين منهجاً لكان له شأن آخر أعلى وأعظم. إن السنة الشريفة ـ بعد كتاب الله عز وجل ـ تحترم علوم الكون والاجتماع، كما تشجع الآيات القرآنية على فتح مغاليقها والتبرز فيها من خلال الاعتزاز بالله تعالى، والتفكير فى بديع صنعه ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وبهذه النية يؤت العلم خير ثماره. وفيما يلى نرى كيف أن السنة الشريفة دعت إلى التكافل العلمى الرفيع فى اسمى معانيه وأرقى صورة.

من الجوانب المشرقة فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم اهتمامه بالعلم اهتماماً منقطع النظير، فمن نظر إلى هذا الجانب من الرسالة المحمدية علم تمام العلم أنه بعث معلماً، فإذا كان العلم كما يقول الناس ـ نور" فإن النبى صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. ويمكن من خلال دراسة الجانب العلمى فى السنة الشريفة والتكافل فيه استنباط طائفة من الأساليب التى تبعها النبى صلى الله عليه وسلم فى تعليم أمته نذكرها فيما يلى:

---

[١] هو د. نصر ابو زيد بقسم اللغة العربية جامعة القاهرة

[٢] "اللواء الاسلامى" عدد ٦٩٠ السنة خمسة عشر. الخميس ١٢ذو القعدة ١٤١٥-١٣أبريل ٩٥م

أولاً: لمّا كانت الأمية سائدة فى صدر الإسلام ولكى يصل النبى صلى الله عليه وسلم إلى نتائج سريعة لإزالة هذه الأمية بين المسلمين لا يتوقف عند تعليم المسلم للمسلم وإنما يتحين فرصة يجدها فى أسرى بدر عند طائفة ممن لديهم علم بالقراءة والكتابة فيجعل فداء الأسير منهم تعليم عشرة من المسلمين وأبناءهم[١]. وهذا الموقف النبوى الشريف يظهر ضرورة تكافل ولاة الأمر فى القضاء على الأمية وإتباع الأساليب المناسبة فى ذلك.

ثانياً: كان من أساليب النبى صلى الله عليه وسلم التشجيع على طلب العلم، وهذا الاسلوب فى الدعوة إلى التعلم، مستمد من فهم النبوية لأول ما نزل عليها فكان أول ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم﴾[٢]. وبالرغم مما كان يوجد فى مجتمعه من معارف أخذت عن طريق المشافهة، وحافظه قوية ووعى دقيق، وحسن إدراك إلا أن الآيات أشارت إلى أهمية القراءة والكتابة بالقلم.

وقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة فقال: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٣]، وفى هذا قمة الحث على طلب العلم، وكفالة العالم بتعليم طلابه.

---

[١] "نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين" فضيلة الشيخ محمد الخضرى صـ١٤٢ ط دار الجيل

[٢] سورة العلق (١- ٥)

[٣] أخرجه ابن ماجة فى المقدمة / باب فضل العلماء والحث على طلب العلم / ط صـ٨١.

وفى الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان، وقال السيوطى: سئل الشيخ محى الدين النووى رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال: إنه ضعف أى سنداً، وإن كان صحيحاً أى معنى، وقال تلميذه جمال الدين المزى: هذا الحديث روى من طريق تبلغ رتبة الحسن، وهو كما قال: فإنى رأيت له خمسين طريقاً جمعتها فى جزء ا.هـ كلام السيوطى انظر ابن ماجة بتحقيق فضيلة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى جـ١ صـ٨١.

- وأخرج البغوى "فى مصابيح السنة" فى قسم الحسان/ كتاب العلم/ باب/ جـ١ صـ١٧٢. ورواه ابن عبد البر من طرق متعددة فى كتابه "جامع بيان العلم وفضله" جـ١ صـ٧-١٠. ومما ذكره: أن الحديث فى وجوب طلب العلم فى =

ثالثاً: ومن أساليب التربية النبوية فى مجال العلم، أن لكل فعل نيجة، والنتائج مصحوبة بأسبابها، وعلى قدر منزلة الانسان فى الفهم والعلم تكون صحة النتائج، ويدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم "من يرد الله به خيراً يفقه فى الدين"[١]. ففهم أى مسألة يعنى معرفة أسبابها، وما يترتب على هذه الأسباب من نتائج، ففى مجال الصحة العامة روى جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن فى السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء[٢]. قال ابن القيم: وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم. وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة[٣]. إن هذا يحتمل فى عصرنا ما يذكر من تكاثر جراثيم معينة فى أوقات معينة، يكون لها آثارها على الانسان، فالمنهج النبوى قائم على أسس واقعية.

رابعاً: ومن أساليب التكافل العلمى والحث على نشره وطلبه جعل النبى صلى الله عليه وسلم كل ذلك من جملة الطاعات لله تعالى فيقول صلى الله عليه وسلم: "ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً، إلا سهل الله له به طريقاً إلى

=أسانيده مقال لأهل العلم بالنقل، ولكن معناه صحيح عندهم، وإن كانوا قد اختلفوا فيه اختلافاً متقارباً ط صـ١٠ ومن خلال أقوال العلماء فى تضعيف حفص بن سليمان نجد قول وكيع كان ثقة أخرج النسائى حديثه فى مسند على متابعة، وقول أحمد بن حنبل مرة ما به بأس. "تهذيب التهذيب" لابن حجر جـ٢ صـ٤٠٠،٤٠١.

وعلى هذا فالحديث إن كان ضعيفاً تبعاً لأقوال بعض العلماء إلا أن ضعفه ليس بساقط لصحة معناه كما قال النووى، وحكم المذى عليه بالحسن، وذكره البغوى فى الحسان وتوثيق النسائى له وإخراجه عنه متابعة.

أضف إلى ذلك أن الحديث الضعيف ليس ساقطاً فى كل حال فإنه يعمل به فى فضائل الأعمال وقد استوفى شرط ذلك فإنه يندرج تحت الآيات القرآنية، وما ورد فى فضل العلم والحث على طلبه فى الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والله أعلم.

[١] سبق تخريجه

[٢] أخرجه مسلم / كتاب الأشربة / باب استحباب تغطية الإناء .. / جـ١٣ صـ١٨٦ (النووى)

[٣] "الطب النبوى" لإبن قيم الجوزية صـ٢٦٤ ط مطبعة العلوم ـ لبنان.

الجنة... "[١] . الحديث ويظهر التكافل واضحاً فيما أخرجه أبو داود بسنده عن سهل - يعنى ابن سعد - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: والله لأن يُهدى بهداك رجل واحدٌ خير لك من حمر النعم"[٢]. وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "نصر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"[٣].

وحث العلماء على بذل العلم لأنه رحم بين أهله، متواصل بين العصور يأخذ الخلف عن السلف أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم"[٤] فهذا الحديث أصل من أصول التكافل العلمى بين الأجيال.

وفى قوله صلى الله عليه وسلم عموم ليس قاصراً على جانب الفقه فى الدين وإنما الأداء والتحمل لكل ما صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم، ويؤخذ هذا المعنى أيضاً من دلالات النصوص السابقة ففى قوله صلى الله عليه وسلم المتقدم "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً" فلم يُقَيَد هذا العلم بفرع خاص، فطرق العلم متشعبه، ومتنوعة بما يمكن معه إدراج العلوم الكونية والاجتماعية والمادية.

فإن كان من العلم ما هو فرض متعين لا يسع المسلم جهله نحو أركان الايمان والاسلام فإن غيره فرض على الكفاية وهو كل علم تحتاجه الأمة فى أمر دنياها ورقيها بين غيرها من الأمم، لتقوى به شوكتها، وتمتنع به عمن أرادها بسوء.

وأهم قواعد وأسس الأبحاث الكونية ضرورة انطلاقها من إخلاص النية لله تعالى، وإلى العلوم الكونية ونتائجها واسمى مقاصدها يقول الله تعالى: ﴿ ألم تر أن

---

[١] أخرجه أبو داود /كتاب العلم / باب الحث على طلب العلم / جـ٣ صـ٣١٧.

[٢] المصدر السابق / باب فضل نشر العلم / جـ٣ صـ٣٢٢.

[٣] المصدر السابق جـ٣ صـ٣٢٢.

[٤] أخرجه أبو داود / كتاب العلم / باب فضل نشر العلم / جـ٣ صـ٣٢٢

الله أنزل من السمآء مآءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها وغرابيب سودٌ، ومن الناس والدوآب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلمآء إن الله عزيز غفور ﴾[١] .

فمن تفكر واكتشف ما فى كون الله تعالى إزداد يقينه بالله تعالى، واطمأن قلبه وخشعت جوارحه، وعلى هذا يكون الباحث قد أفاد خير الدنيا بما وصل إليه من كشف، وخير الآخرة بما وصل إليه من يقين إيمانى، وهذه هى القيمة السامية للبحث العلمى فى الاسلام. فالسنة وإن جعلت الفقه الدينى فى صدارة العلوم إلا أنها دعت كل من لديه علم أن يعلمه غيره على جهة التكافل. قال صلى الله عليه وسلم "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"[٢]. فيندرج فى الإطلاق علوم الدنيا.

خامساً: ومن أساليب التربية النبوية فى التكافل العلمى أنه مزج بين سلوكيات المرء فى دنياه، ومتطلبات اللقاء الإلهى الذى لا محيص عنه، قال صلى الله عليه وسلم: "من طلب العلم ليجارى به العلماء، أو ليحارى به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار"[٣]. وكذلك حذر النبى صلى الله عليه وسلم العلماء من كتم العلوم التى وهبهم الله تعالى إياها فينعى عاقبة هؤلاء بقوله صلى الله عليه وسلم "من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"[٤].

---

[١] سورة فاطر (٢٧،٢٨)

[٢] أخرجه مسلم / كتاب الامارة / باب فضل إعانة الغازى / جـ١٣ صـ٣٨،٣٩ (النووى).

[٣] أخرجه الترمذى / كتاب العلم / باب ما جاء فيمن طلب بعلمه الدنيا / جـ٥ صـ٣٣

[٤] أخرجه أبو داود / كتاب العلم / باب كراهية منع العلم / جـ٣ صـ٣٢١

سادساً: ومن أوضح دلائل التكافل العلمى فى السنة الشريفة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصر العلم على فئة معينة من الناس، فإن الجميع عنده سواسية كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[١] .

وروى علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبذى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال: ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظوهم، ولايأمرونهم، ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولايتعظون، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم، أو لأعجلنهم العقوبة، ثم نزل فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء قال: الأشعريون هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ذكرت قوماً بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال: ليعلمن قوم جيرانهم وليفقهنهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهوا أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا، فأعاد قوله عليهم، وأعادوا قولهم أنفطن غيرنا فقال ذلك أيضاً، فقالوا: أمهلنا سنة ليفقهونهم ويعلمونهم ويفطنونهم ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية "لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود" الآية [٢].

وحتى لا يصبح العلم حكراً على مكان دون غيره كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعث بالعلماء الفقهاء من أجلاء الصحابة إلى الجهات الأخرى، وإبتدأ ذلك منذ

---

[١] سورة النساء (١)

[٢] أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد / كتاب العلم / باب فى تعليم من لا يعلم / ط صـ١٦٤. وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال: وفيه بكير بن معروف قال البخارى إرم به ووثقة أحمد فى روايته وضعفه فى أخرى وقال: ابن عدى أرجو أنه لابأس به. (مجمع) جـ١ صـ١٦٤

كان فى مكة المكرمة فأرسل إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى الصحابى الجليل مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين وأن يؤمهم فى الصلاة وكان يسمى فى المدينة (المقرئ) و"القارئ"[١]. وأرسل الكثير بعد الهجرة إلى القبائل خارج المدينة واليمن. وحتى لا يصبح العلم خاص بالرجال، فقد خصص النبى صلى الله عليه وسلم يوماً للنساء يخلو بهن فيعلمهن ويجيبهن عن أمور دينهن بروح طيبة، ونفس عالية، وصدر رحب، قال ابن حجر: (قوله باب عظة الإمام النساء وتعلمهن) نبه - أى البخارى - بهذه الترجمة على أن ما سيق من الندب إلى تعليم الأهل ليس مختصاً بأهامن بل ذلك مندوب للإمام الأعظم ومن ينوب عنه[٢] .

أخرج البخارى بسنده عن ابن سعيد الخدرى قال: "قال النساء للنبى صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً ليفقهن فيه فوعظهن وأمرهن ..."[٣] الحديث.

إذن فأسلوب النبى صلى الله عليه وسلم فى التكافل العلمى لم يقتصر على طبقة دون طبقة أو على الرجال دون النساء فإن منهجه كان حكيما، ويلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم قد خلا بالنساء يوما دون الرجال مما يدعو إلى أفضلية عدم إختلاط الرجال بالنساء، والنساء بالرجال ولو فى مجال التعليم دون داع لذلك فأمرهن مبنى على الستر.

الصحابة رضوان الله عليهم والخلف من التابعين يتكافلون فى نشر العلم:

تبع الصحابة رضى الله تعالى عنهم النبى صلى الله عليه وسلم فى نشر العلم، فانطلقوا فى الآفاق يعلمون القاصى والدانى دون كلل أو ملل فخرجوا على

---

(١) راجع "السيرة النبوية" ا.د/ محمد محمد أبو شهبة صـ٤٥٨

(٢) "فتح البارى" جـ١ صـ٢٠٢.

(٣) أخرجه البخارى / كتاب العلم / باب هل يجعل للنساء يوماً على حدة فى العلم / ط صـ٢٠٦ (ابن حجر).

أيديهم أمة لم تعرف الدنيا فى عصرهم مثلها فى الايمان والعلم والعمل فكان يقول الواحد منهم سلونى[١] . ويقول سعيد بن جبير "إن مما يهمنى أنى وددت أن الناس قد اخذوا ما معى من العلم[٢] . ويقول سفيان الثورى من التابعين "والله لو لم يأتونى لأتيتهم فى بيوتهم ـ يعنى أصحاب الحديث ـ ويقول الربيع بن سليمان قال لى الشافعى: يا ربيع لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه. وقال الخاقانى:

ألا فاحفظوا وصفى لكم ما اختصرته ليدريه من لم يكن منكم يدرى
ففى شربة لو كان علمى سقيتكم ولم أخف عنكم ذاك العلم بالدخل

وقال عبد الملك بن مروان فى خطبة يوم الفطر: إن العلم يقبض قبضاً سريعاً، فمن كان عنده علم فلينشره غير خاف عنه ولاغال فيه[٣].

المسلمون ونشر العلم والاستفادة من علوم الآخرين:

عندما انطلق المسلمون ينشرون دين الله تعالى فى أرضه، كان لهم قصب السبق فى هذا من بين الفاتحين، لقد تجاوزوا كل حد فى نشر الخير والهدى بين الناس على جهة التكافل البشرى. وفى ذات الوقت يأخذون ما وجدوه من العلوم والصناعات، إنهم لم يرتكبوا ما صنعه التتار حين أفسدوا ثقافات الأمم فى كل دار نزلوه.

فقد حافظ المسلمون على مصادر العلوم عند غيرهم، فاستأجروا العارفين بلغة غيرهم وأغدقوا عليهم من الأموال ما يحثهم على بذل غاية الجهد فى ترجمة هذه المصادر إلى العربية. واتبعوا ذلك بالاطلاع عليها ودراستها دراسة دقيقة مراعين فى ذلك الإطار الإسلامى، وتعمقوا، ووصلوا إلى كثير من المكتشفات العلمية التى لم يصل إليها غيرهم من الأمم فبرز ابن الهيثم فى البصريات،

---

[١] راجع "جامع بيان العلم وفضله" جـ١ صـ١١٤،١١٥

[٢] المصدر السابق جـ١ صـ١١٦.

[٣] راجع هذه الآثار فى المصدر السابق جـ١ صـ١٢٣،١٢٤

والخوارزمى فى الرياضيات، وابن سينا فى الطب، والفرابى فى العقليـات وغيرهم، فأصبح المسلمون بعد ذلك محط رحال طلاب العلم[١].وترى ذلك فيما يأتى من كـلام بعض المؤرخين.

شهادة مؤرخى أوربا بتكافل المسلمين فى نشر العلم:

يقول "درييز" المدرس فى جامعـة نيويـورك فـى كتابـه "المنازعـة بيـن العلـم والدين" إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية ـ بحسـب تعبيره ـ سنة (٦٣٨) بعد موت محمد بست سنين ولم يمض عليهم بعـد ذلـك قرنـان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلميـة اليونانيـة وقدروهـا قدرهـا الصحيـح، ولمـا آلـت الخلافة إلى المأمون سنة ٨٦٣م صارت بغداد العاصمة فجمع العظمـى فـى الأرض إليها الخليفة كتباً لا تحصى وقرب إليه العلماء وبالغ فى الحفاوة بهم.

وبعد أن عدد مآثرهم فى العلوم الطبيعية قال: لو أردنا أن نستقصى كل آثـار هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هـذا الكتـاب، فـإنهم قـد رقّـوا العلـوم القديمة ترقية كبيرة جداً، وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم"

ويقـول فـى مواطـن أخـرى: وإن جامعـات المسلمين كـانت مفتوحـة للطلبـة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوربـا يغـدون علـى بلاد المسلمين ليعالجوا فيها.

ويقول "سديو" فى كتابه "تاريخ العرب": "كان المسلمون فى القرون الوسـطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنهـم إلى أوربا فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها".

ويعبر عـن ذلـك د. "جوستاف ليبـون" فـى كتابـه "حضـارة العـرب" بقولـه: "ولانرى أمة فى التاريخ ذات تأثير بارز كالعرب، فجميع الأمم التى كانت ذات صلة

---

[١] راجع "تاريخ العلوم عند العرب" د. على عبد الله الدّفاع. ط وزارة المعارف السعودية .ط ١٤٠٣-١٩٨٣م.

بالعرب اعتنقت حضارتهم، ولو حيناً من الزمن. ويقول: ولم يتجلى تأثير العرب فى الشرق فى الديانة واللغة والفنون وحدها بل كان لهم الأثر البالغ فى ثقافته العلمية أيضاً، وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسماً كبيراً من معارفهم العلمية التى عَدَّها الأوربيون على غير حق من أصل هندى أو صينى. وفى نفس المجال يقول (أ. "ليبرى"): "لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون" ويقول: وقد كانت ترجمات العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس فى جامعات أوربا نحو ستة قرون، ويمكننا أن نقول: أن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلاً دام إلى الزمن الحاضر فقد شرحت كتب ابن سينا فى "مونبيليه" فى أواخر القرن الماضى[١] .

دلالة هذه النصوص:

لما بدأ النبى صلى الله عليه وسلم بنشر العلم وبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، صار المسلمون على نهجه واقتدوا به صلى الله عليه وسلم فيما بينهم على التكافل على نشر العلم، ولم يجعلوا ذلك قاصراً على أفراد الأمة الإسلامية ومنعوه غيرهم، بل نجد فى هذه النصوص لعلماء غير مسلمين دلائل واضحة على أن العلم عند المسلمين حق لكل طالب له سواء تبع ملتهم أو خالفهم فيها، ولذلك كان لهم هذا الأثر البالغ فى العالم أجمع من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب.

الخلاصة:

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا إلى التكافل العلمى، وأن شريعته لم تتوقف عند نوع واحد من العلم وأن المنهج العلمى الذى يحرص عليه العالم فى عصرنا إنما هو قائم على التدبر فى ظواهر الكون الإلهى

---

[١] راجع هذه الأقول فى كتاب "روح الدين الاسلامى" أ. عفيف عبد الفتاح طبارة صـ٢٧٨،٢٧٩ بتصرف.

الذى هو شرع نبيه صلى الله عليه وسلم، وجمع ابن القيم الجوزية فى كتابه "الطب النبوى" طائفة غير قليلة من أقوال النبى صلى الله عليه وسلم فى مجال الأمراض البدنية والنفسية والتداوى منها، مما يرشد إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يوجه بذلك أنظار أصحابه إلى الإفادة مما سخره الله تعالى لعباده فى أرضه كما قال تعالى ﴿ وسخر لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾[1]. فهل يمكن أن يتكافل المسلمون فى عصرنا لبعث روح العلم فى النفوس لا لمجرد محو أمية أو الحصول على شهادات؟ وهل لنا أن نتكافل علمياً ونتكاتف لدحض التيارات الثقافية المنحرفة عن الدين السمح والتى تدعو إلى المادية البحتة؟ نكون بذلك قد أطعنا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى شبابنا أن يمتلئ قلبه بشعلة من الحماس فى طلب العلم النافع من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين[2] . هذا وإن كان الحديث يتوجه إلى طلاب السنة الشريفة وخدامها إلا أن العلماء فى فروع العلم يندرجون فى النص الكريم لأنهم أتباع النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم.

رابعاً التكافل الدفاعى والجنائى بين المسلمين:

أخرج أبو داود بسنده عن قيس بن عباد قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علىّ عليه السلام، فقلنا: هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعهده إلى الناس عامة؟ قال: لا، إلا ما فى كتابى هذا، قال مسدد: قال: فأخرج كتاباً، وقال أحمد: كتاباً من قراب سيفه، فإذا فيه: "المؤمنون تكافأ دماءهم وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يقتل مؤمن كافر، ولا ذو عهد فى عهده، فمن

---

[1] سورة الحج (٦٥)

[2] أخرجه البغوى فى قسم الحسان / كتاب العلم / باب / جـ١ صـ١٧٩ وهذا الحديث أرسله إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال الذهبى: تابعى مقل ما عملته واهيا أرسل حديث يحمل هذا العلم...)

"ميزان الاعتدال" حـ١ صـ٤٥: قال جمال الدين القاسمى بعد ابراز هذا الحديث متصلاً من رواية اسامة بن زيد: ورواه من الصحابة غير واحد، أخرجه ابن عدى، والدار قطنى، وأبو نعيم وتعدد طرقه يقضى بحسنه كما جزم به العلائى (قواعد التحديث) صـ٤٨، ٤٩.

أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين[١] .

ما أعظم جوامع كلم النبى صلى الله عليه وسلم، وما أروع قوله، وما أبلغ بيانه، فالأخوة الايمانية هى أصدق تعبير عن الوحدة المشتركة بينهم (المؤمنون تكافأ دماءهم وهم يدٌ على من سواهم)، فلا جنسية ولا عنصرية، ولا قومية، مما ألفه البشر فى أيامهم وبلادهم، فقد قرر القرآن الكريم ذلك بقوله "إنما المؤمنون إخوة"[٢].

وقرر النبى صلى الله عليه وسلم بوضوح تام حين ينهى عن أمور، ينبغى ألا تكون هى أو أسبابها بين الأخوة. أخرج مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاتحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه"[٣] .

فالإعانة والنصر والاتحاد والتعاون، وصلاح ذات البين، قائم على الأخوة الاسلامية، لا لاعتبارات بدائية ممقوتة، إنها مبادئ ومثل عليا مستقاة من معنى الايمان بالله رب العالمين.

فالتكافل بينهم طبيعة يتحقق من تلقاء نفسه بمجرد الإيمان بالله تعالى الذى يستتبعه جميع آثاره[٤]. قال تعالى: ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين

---

[١] أخرجه أبو داود / كتاب الديات / باب أيقاد المسلم بالكافر / جـ٤ صـ١٨٠،١٨١

- وأخرجه النسائى / كتاب القسامة / باب سقوط القود من المسلم للكافر / جـ٨ صـ٢٤.

- وأخرجه أحمد جـ١ صـ١٢٢

[٢] سورة الحجرات (١٠)

[٣] أخرجه مسلم / كتاب البر والصلة / باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره / جـ١٦ صـ١٢٠،١٢١ (النووى).

[٤] راجع "الاسلام عقيدة وشريعة" للإمام الأكبر محمود شلتوت صـ٣٣-٤٣٥

قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن اللــه ألـف بينهـم إنـه عزيز حكيم ﴾[١].

وفى قوله "المؤمنون تكافأ دمائهم" دليل المساواة التامة بينهم، فهـم عبـادَ اللـه وهو خالقهم وإليه يحشرون، لا فرق بينهم إلا بالتقوى وحسن العمل، ومن مقتضيـات هذه القاعدة المساواة فى الحقوق والواجبات.

وبمعنى العصر فكل مواطن لـه حقـه السياسـى، والمراقبـة والنصـح لأوليـاء الأمور، لأنه مسئول عن مستقبل الأمة، والمجتمع متكافل فى تأييد السياسة الرشـيدة، ومعاونة أولياء الأمور فى انكار الفساد والانحراف[٢] .

فالنبى صلى الله عليه وسلم نبه إلى هـذا التكـافل (التكـافل السياسـى)، وعنـه بكلمة من وجيز الأسماء ومختصر الكـلام وهـى (النصيحـة)، فعـن تميـم الـدارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسـوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[٣] .

ومن أنفس كـلام العلمـاء فـى معنـى الحديـث: أن النصيحـة لأئمـة المسـلمين معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم، وتزكـيرهم برفـق ولطـف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم مـن حقوق المسـلمين، وتـرك الخـروج عليهـم، وتأليف قلوب النــاس لطـاعتهم، قـال الخطـابى: ومـن النصيحـة لهـم الصـلاة خلفهـم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم، إذا ظهـر منهـم حيف أو سوء عشرة، وألا يغروا بالثنــاء الكـاذب عليهـم، وأن يدعـى لهـم بـالصلاح، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بـأمور المسـلمين من أصحاب الولايات، وهذا هو المشهور[٤].

---

[١] سورة الأنفال (٦٢-٦٣)

[٢] راجع "اشتراكية الاسلام" أ.د مصطفى السباعى صـ١٧٩

[٣] أخرجه مسلم / كتاب الايمان / باب الدين النصيحة / جـ٢ صـ٣٧ (النووى)

[٤] "شرح صحيح مسلم" للنووى جـ٢ صـ٣٧ بتصرف

مما تقدم يتبين لنا مقتضى التكافل الدفاعى والجنائى بين المسلمين. فما المراد بكل منهما؟ الإجابة على هذا السؤال فيما يلى:

(أ) التكافل الدفاعى:

قضى النبى صلى الله عليه وسلم منذ بعثته على العصبية الجاهلية العمياء، وفى نفس الوقت لم يخمد روح التناصر بين المسلمين، ولم يطغى جذوة الحماس من قلوبهم، ولم يقضى على العزة فى نفوسهم فالعزة لله ورسوله والمؤمنين، فقد هذب النبى صلى الله عليه وسلم هذه الطباع، وساسها بحكمة بالغة، حتى وصلت إلى معرفة الحق فى ذلك، فلا تكافل، ولا تناصر فى الظلم والبغى والعدوان، إنما التكافل فى نصرة الحق، وإعلاء كلمته، روى مسلم بسنده عن جابر قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار فنادى المهاجر أو المهاجرون يا للمهاجرين، ونادى الأنصارى يا للانصار فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا دعوى أهل الجاهلية؟ قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع[*] أحدهما الآخر، قال: فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره[١] وعن البخارى من رواية أنس "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجل: يا رسول الله أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه[٢].

فهذا مفهوم التناصر فى السنة النبوية وكيف فسره النبى عليه الصلاة والسلام للسائل عندما وجد أن القول الأول لا يتوافق مع المشاعر الايمانية، وكان من أساليب الأداء النبوى الشريف ـ أن يلقى ما عنده من أحكام وتوجيهات بأسلوب يدفع السامع للاستفسار حتى يستقر المعنى فى النفس أيما استقرار ومظاهر التكافل

---

[*] كسع:ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه – القاموس المحيط حـ٣ صـ ٧٨

[١] أخرجه مسلم / كتاب البر والصلة / باب نصر الأخ ظالماً أومظلوماً / جـ١٦ صـ١٢٧،١٢٨.

[٢] أخرجه البخارى / كتاب الإكراه / باب يمين الرجل لصاحبه / جـ١٢ صـ٣٢٣

الدفاعى فى السنة المباركة متعددة، تؤخذ من منطوق بعض نصوصها، ويؤخذ البعض الآخر من المفهوم.

ومما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التكافل الدفاعى قوله صلى الله عليه وسلم "المؤمنون تكافأ دمائهم يسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم"[١]. وقوله "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره"[٢]. وقوله صلى الله عليه وسلم "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"[٣] ومنه قوله "ترى المؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٤] .

أما الدفاع عن الأوطان فإنه يستتبع ولاية المسلمين بعضهم بعضا، قال تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[٥]. وهو أمر واجب كما قال تعالى: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾[٦]. وقوله تعالى بصيغة الجمع ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾[٧]. ويحذر من التقاعس فى النصرة بقوله إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً[٨].

والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل على الرأى الراجح، وبين النبى صلى الله عليه وسلم مكانة الجهاد والمجاهدين وأنه لاعِدْل له فهو أفضل الأعمال بعد الايمان بالله عز وجل. أخرج مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل قال:

---

[١] سبق تخريجه

[٢] سبق تخريجه

[٣] سبق تخريجه

[٤] سبق تخريجه

[٥] سورة التوبة (٧١)

[٦] سورة البقرة (٢١٦).

[٧] سورة التوبة (٤١)

[٨] سورة التوبة (٣٩)

الإيمان بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، قال ثم ماذا؟ قال: حج مبرور. وفى رواية محمد بن جعفر إيمان بالله ورسوله[١]. وأخرج بسنده ـ أيضاً ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى، وإيمان بى وتصديقا برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من أجراً أو غنيمة، والذى نفسى بيده ما من كلْمٍ يُكْلَم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامه كهيئته حين كلم لونه لون دم، وريحه مسك، والذى نفسى محمد بيده لولا يشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله، فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل[٢] .

إنه قول يسرى إلى الروح، فتهون عن رضا ومحبة، وتمتلئ بالرغبة إلى هذا المصير، فهذا القول يرشد إلى فضيلة الجهاد والشهادة فى سبيل الله تعالى، وتمنى الشهادة، وأن الجهاد فرض كفاية وليس فرض عين، فمن أخلص النية إلى الله تعالى عند خروجه، فقصد نشر دين الله تعالى، وإعلاء كلمته، والدفاع عن حرمات المسلمين ضد الكفر والبغى، وحماية دين الله تعالى، من قصد ذلك نال هذا الثواب المذكور لذا قال صلى الله عليه وسلم "والله أعلم بمن يكلم فى سبيله".

ومن مظاهر التكافل الدفاعى: إعانة المغازى فى سبيل الله تعالى فقد أخرج مسلم بسنده عن زيد بن خالد الجهنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من جهز غازياً فى سبيل الله تعالى فقد غزا، ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا"[٣]. وهذا ظاهر فى تكافل المسلمين الدفاعى بأسلوب رفيع القدر عظيم المعنى، ففيه فضيلة من جهز غازياً.

---

[١] أخرجه مسلم / كتاب الايمان / باب الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال / جـ٢ صـ٧٢

[٢] أخرجه مسلم / كتاب الأمارة / باب فضيلة الجهاد / جـ١٣ صـ١٩، ٢٠

[٣] كتاب الإمارة / باب فضل اعانة المغازى فى سبيل الله ... / جـ ١٣ صـ ٤٠

ومن مظاهر التكافل الدفاعى: الذى يتضمن الحديث رعاية أسر المحاربين فمن خلف المحارب فى أهله وماله بخير كان له نصيباً من الفضل وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم " ... ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا" أى حاز أجر من خرج مجاهداً. وهذا التكافل له أثره فى نفس المغازى فإنه يخرج للجهاد مطمئناً أن الله تعالى لن يضيع أهله بما هيئ لهم من أخوة إسلامية متناصرة متضامنه.

ومن مظاهر التكافل الدفاعى: بذل المال على حد قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"[1] .

من صور التكافل الدفاعى المادى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم:

ترامت الأخبار إلى النبى صلى الله عليه وسلم بإعداد الرومان للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، فكان الموقف الذى يواجهه المسلمون شديد الخطورة بالنسبة للرومان الذى جهز حينئذ جيشاً عرمرما.

وزاد من خطورة الموقف أن الزمان كان فصل فيظ شديد، وكان الناس فى عسرة وجدب من البلاء، وقلة الظهر مع بعد المسافة، كذا ظهور نضج الثمار المترقبة لفك البلاء عنهم، ومحبة المقام فى هذا الوقت فى ثمارهم وظلالها. ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الظروف، وتطورات الموقف بنظرة أدق وأحكم من هذا كله، فلو ترك الرومان وما أزمعت عليه لكان له أسوأ الأثر على الدعوة الربانية، وعلى أهلها، فقرر القيام ـ برغم الظروف ـ بغزوة فاصلة ضد الرومان.

أعلن النبى صلى الله عليه وسلم أن يتجهزوا للقتال، وأعلن للناس وجهته على غير عادته ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، فسارع المسلمون ملبين داعى الجهاد من كل صوب، وتسابقوا إلى انفاق المال فى التجهيز لأنفسهم وغيرهم

---

[1] سورة التوبة (١١١)

ممن ليس لهم مال، فكان لعثمان بن عفان رضى الله عنه دور بارز، فقد حول تجارته المتجهة إلى الشام فتصدق بكل ما فيها من إبل وأموال (مائتا أوقية) ثم جاء بألف دينار ونثرها فى ثوب النبى صلى الله عليه وسلم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ماضر عثمان ما عمل بعد هذا" وقد بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس غير النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه (بمائتى أوقية فضة)، وجاء أبو بكر بماله كله كعهده، وجاء عمر بمال كثير وجاء العباس بأموال كثيرة أيضاً، وتتابع الناس حتى النساء لم يمسكن شيئاً من حليهن.

هذا وقد خرجت طائفة من الصحابة يحثون الناس على التجهز للخروج، وجماعة تتكر على المثبطين من أهل النفاق وترد كيدهم ولو بتحريق بيوتهم بأمر النبى صلى الله عليه وسلم.

وخرج هذا الجيش بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم يحدوه رعاية الله تعالى وماهيىء له من تكافل المسلمين، ونصرتهم الله تعالى ورسوله، حتى التقى فى تبوك بالروم فى رجب سنة تسع من الهجرة، ونصره الله تعالى واصحابه نصراً مؤزراً، وشهدالرومان نهايتهم فى هذه الغزوه، وهكذا يكون دائما أثر التكافل الجماعى نصر وعزة وكرامه[1] .

إذن فميراث النبوة الشريفه لأمته يدعو إلى التضامن والتناصربأقصى ما يمكن للمرء أن يبذل وخاصة عند الحاجة لجهده وماله ونفسه للدفاع عن دينه وأهله وأرضه. والمفهوم الدفاعى فى السنة الشريفة لا يعرف حدوداً أو فواصل تمنع المسلم من نصرة الأخ المسلم، فقد نصر الله تعالى المرأة المسلمة حين أسرها بقولها "وامعتصماه" فلبى الدعاء من بغداد حتى فك أسرها، إن الغاية هى نصرة الله تعالى، وهذا ما يدفع بالدرجة الأولى إلى التكافل الدفاعى.

---

[1] راجع " البدايه والنهايه " لأ بن كثير ج٥ ص٢-٧ ط دار الفكر العربى / " مختصر سيرة ابن هشام " جـ٢ ص٢٠٢-٢١٣ " /الرحيق المختوم " للشيخ صفى الدين المباركفورى ص٥٠٨٠-٥١٩ ط المكتبه الثقافية .

(ب) التكافل الجنائى:

عنت السنة الشريفة بالمحافظة على الدين والنفس والمال والعقل والنسل أيما عناية، فهذه الكليات الخمس هى مقومات الحياة الانسانية ولا سبيل إلى الحياة إلا بها، والناس حيالها متساوين، لا فرق بين غنى وفقير، فالقوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف قوى حتى يأخذ حقه هذه هى مكانة النفس البشرية فى الشريعة، فتكريم المرء بصيانتها من الاعتداء عليها، فكان ذلك فى حكم الشرع حداما، وأشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا التحريم فى الحج وهو المؤتمر الأكبر للمسلمين فقد أخرج ابن خزيمه فى صحيحه بسنده عن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته يوم عرفة فى حجة الوداع "إعلموا أن دمائكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة بلدكم هذا[١].

وجعل النبى صلى الله عليه وسلم هذا الاعتداء نوع من الظلم، ونسبه إلى السبب فى وقوعه وأنه الشح، أخرج مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم "[٢] .

ومع هذا البيان لحرمة دم المسلم، جعل الله تعالى القصاص لمن تسول له نفسه الاعتداء عليها كعلاج ناجع يحفظ على الانسان نفسه، وقد يقع الانسان فى هذه الجريمة عن غير قصد منه، فجعل الله تعالى حكم ذلك تحرير رقبة، ودية مسلمة إلى أهله مواساة لأولياءه، لفقدهم وليهم. قال تعالى: ﴿.. ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾ الأية[٣] .

---

[١] أخرجه ابن خزيمة / الحج / باب صفة الخطبة يوم عرفه / جـ٤ صـ٢٥٠،٢٥١. ط المكتب الاسلامى بيروت

[٢] أخرجه مسلم / كتاب البر والصلة / باب تحريم الظلم / جـ١٦ صـ١٣٤

[٣] سورة النساء (٩٢)

وإليك مثالين لبيان جانب التكافل فى هذا الجانب:

أ. قد يقع الإنسان فى جريمة القتل الخطأ ـ كما تقدم ـ وتلزمه دية القتيل، وهنا يأتى التوجيه النبوى الشريف بالتكافل بين العاقله ـ التى لا تشارك فى العمد ـ فى دفع الدية فى جناية وقعت عن غير قصد من الجانى مواساة له، وتعاوناً وتخفيفاً عنه فنظرية اشتراك العاقله فى تحمل دية الخطأ ليست من باب وقوع مسئولية الجناية على غير صاحبها، فظاهر الأية دال على أن الدية على العاقل، ولكن اشتراك العاقلة كان إقراراً من السنة الشريفة لنظام عربى إقتضاه ما كان بين القبائل من التناصر والتعاون، وهو يستتبع المصالحة بين المسلمين، وتطهيراً للنفوس من الأحقاد والضغائن[١].

وعاقلة الرجل عشيرته ثم الأقرب فالأقرب من الرجال الأحرار البالغين أولى اليسار منهم ولابن عابدين فى "الحاشية": وإن كان له متناصرون من أهل الديوان والعشيرة والمحلة والسوق، فالعاقلة أهل الديوان، ثم العشيرة، ثم أهل المحلة، والمدار على التناصر فمتى وجد بطائفة فهم عاقلته وإلا فلا، وإن لم يكن للقاتل عاقلة بأن كان لقيطا، أو ما يشبهه فالدية فى بيت مال المسلمين، وإن لم يوجد بيت مال فالدية فى ماله[٢] .

وحكى ابن قدامة وابن المنذر اتفاق العلماء وإجماعهم فى أن دية الخطأ على العاقلة[٣].ودليل ذلك من السنة ماأخرجه البخارى بسنده عن ابى جحيفة قال: سألت عليا رضى الله عنه: هل عندكم شئ ما ليس فى القرآن؟ وقال مرة: ماليس عند الناس؟ فقال: والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما فى القرآن، إلا فهما يعطى رجل فى كتابه، وما فى هذه الصحيفة فقلت: وما فى الصحيفة؟ فقال:

---

[١] راجع "الاسلام عقيدة وشريعة" صـ٣١٥ وما بعدها

[٢] راجع "حاشية ابن عابدين" جـ٦ صـ٦٤٦،٦٤٧ ط مصطفى البابى الحلبى ط٢ ١٩٦٦

[٣] راجع "المغنى" لابن قدامة جـ٧ صـ٧٧٠ مكتبة الجمهورية العربية

العقل وفكاك الأسيرى، وألا يقتل مسلم بكافر[١] . وأخرج بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قضى فى جنين إمرأة من بنى لحيان بغرة عبدٍ، أو أمة، ثم إن المرأة التى قضى عليها بالغرة توفيت، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ميراثها لبنيها وزوجها، وأن العقل على عصبتها[٢].

أما الحكمة فى تكافل المسلمين فى هذا الجانب فلأن جنايات الخطأ تكثر ودية الأدمى كثيرة ـ كما يرى ابن قدامة ـ فإيجابها على الجانى فى ماله يجحف به فاقتضت الحكمة إيجابها على العاقلة على سبيل المواساة للقاتل والإعانة له تخفيفاً عنه، إذا كان معذوراً فى فعله، وينفرد هو بالكفارة[٣].

وفيه أيضاً سر حكيم يشير إليه ابن حجر بقوله: ويحتمل أن يكون السر فيه أنه لو انفرد بالتغريم حتى يفتقر لآل الأمر إلى الإهدار بعد الافتقار، فجعل على عاقلته، لأن احتمال فقر الواحد أكثر من احتما فقر الجماعة، ولأنه إذا تكرر ذلك منه كان تحذيره من العود إلى مثل ذلك من جماعته أدعى إلى القبول من تحذيره نفسه، والعلم عند الله تعالى[٤] .

إذن فهذا التكافل فيه حث على دوام التناصح بين الجماعات، للبعد عن الوقوع فى الخطأ، إضافة إلى التضامن العام بين المسلمين.

ب.وفى القسامة وإقرار السنة لها نوع من التكافل الجنائى يؤخذ من اسمها فانقسامة هى مصدر أقسم قسماً وهى الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم، أو على المدعى عليهم الدم، وخص القسم على الدم بلفظ القسامة، وقال إمام الحرمين: القسامة عند أهل اللغة اسم للقوم الذين يقسمون، وعند الفقهاء اسم

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب الديات / باب العاقلة / جـ١٥ صـ٢٦٩، ٢٧٠ (ابن حجر)

[٢] أخرجه البخارى / كتاب الديات / باب جنين المرأة / جـ١٥ صـ٢٧٦

[٣] "المغنى لابن قدامة" جـ٧ صـ٧٧١ بتصرف

[٤] "فتح البارى" جـ١٥ صـ٢٦٩ بتصرف

للأيمان، وقال فى "المحكم": القسامة: الجماعة يقسمون على الشئ أو يشهدون به، ويمين القسامة منسوب إليهم، ثم أطلقت على الأيمان نفسها[١] .

وهذه التعريفات لمعنى القسامة تدل على التكافل بين الجماعة على أمر ما من الأمور، وخص استعمالها فى القضاء فى دم لم يُقِرَّ به أصحاب المحلة، التى وجد بها القتيل، مع إدعاء أولياء المقتول مسئوليتهم عن قتله، لتعذر البينة على القتل غالباً. وللعلماء فيها أقوال متكاثرة أورد ابن عابدين من الفقهاء فى كتابه "الحاشية" طائفة منها[٢]. والمعنى الذى يخص البحث هو دلالتها على التكافل الجنائى وفعله صلى الله عليه وسلم لها. وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام على مقتضى كرمه وحسن سياسته، وجلب للمصلحة، ودرء للمفسدة على سبيل التأليف، ولاسيما عند تعذر الوصول إلى استيفاء الحق[٣] .

ومثال القسامة التى وقعت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخارى بسنده عن بشير بن يسار: زعم أن رجلاً من الأنصار يقال له سهل بن أبى حثمة، أخبره أن نفراً من قومه انطلقوا إلى خيبر، فتفرقوا فيها، ووجدوا أحدهم قتيلاً، وقالوا للذى وجد فيهم: قتلتم صاحبنا، قالوا: ما قتلناه، وما علمنا قاتلاً، فانطلقوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إنطلقنا إلى خيبر، فوجدنا أحدنا قتيلاً، فقال الكُبْرَ الكُبْرَ[٤] فقال لهم: تأتون بالبينة على من قتله؟ قالوا: ما لنا بينة، قال: فيحلفون، قالوا: لا نرضى بأيمان اليهود، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطل دمه، فوداه من إبل الصدقة[٥]. وهذه القسامة، وإن دفعت من بيت مال المسلمين، عند تعذر أخذها من المدعى عليهم،

---

[١] "فتح البارى" جـ١٥ صـ٢٥١

[٢] انظر حاشية ابن عابدين جـ٦ صـ٦٢٥ / فتح البارى" جـ١٥ صـ٢٥٢-٢٥٥

[٣] المرجع السابق جـ١٥ صـ٢٥٦

[٤] الكُبْرَ الكُبْرَ: أى ليتكلم أكبرُ القوم

[٥] أخرجه البخارى / كتاب الديات / باب القسامة / جـ١٥ صـ٢٥٢-٢٥٥

لاكنها دالة على تحمل المسئولية لكل واحد فى الأمة، لصرفها من بيت مال المسلمين. فمن تدبر هذه المواقف للنبى صلى الله عليه وسلم، لا يندهش من تشبيه النبى صلى الله عليه وسلم الأمة بالجسد الواحد، أو البنيان يشد بعضه بعضا فهو التكامل والتضامن والتعاون ليسود الأمن والأمان والمحبة المجتمع الإسلامى.

خامساً: التكافل المادى المَعَاشِىّ:

لكل ملحمة فى السنة المطهرة عدتها، لأنها وحى من العليم الخبير، وبعد: فهذا النوع من التكافل يقصد به مد يد المساعدة والعون لذوى الحاجة من الفقراء والمساكين، ومن يلحق بهم كابن السبيل والضيفان والمرضى، والغارمين وأصحاب الجوائح وهى الشدة التى تجتاح المال من سنةٍ أو فتنة، كأصحاب الكوارث والزلازل، وما أشبه ذلك ممن استدعت حالته المساعدة والوقوف بجانبه ومؤازرته. وأطلق عليه فى عصرنا أسماء منها "التكافل الاقتصادى" و "التكافل الاجتماعى" وإن كان لامشاحة فى الاصطلاح، إلا أن هذه الأسماء لا تتجه مباشرة إلى المعنى المراد من هذا النوع من التكافل، وإن كان يندرج، فى مفهومها العام فمفهوم الإقتصاد فى الفكر المعاصر كما يذهب صاحب "الموسوعة الاقتصادية"[1] إلى أن ما صدر من تعاريف لعلم الاقتصاد يمكن تقسيمها بوجه عام إلى مجموعتين: الأولى تقوم على أساس الثروة والرفاهية، وهذه تشمل التعاريف القديمة، وأما المجموعة الثانية: فأحدث عهداً وتوصف بأنها أقرب إلى المنهج العلمى، وهى تبدأ من ندرة الموارد إلى اشباع الحاجات البشرية.

---

[1] هو د/ راشد البراوى، انظر "الجانب الاقتصادى فى فقه الإمام الشافعى" د. محمد الدسوقى استاذ الفقه والأصول كلية الشريعة / جامعة قطر صـ٤١٨ منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ١٤١٥-١٩٩٤.

ويمثل المجموعة الأولى التعريف الذى أطلع به "مارشال"[٢] فالاقتصاد السياسى أو علم الاقتصاد هو دراسة تصرفات الإنسان فى نشاط الحياة العادى، فهو يبحث فى الكيفية التى يحصل بها على دخله، وكيف يستخدمه، وبهذا فهو من جهة دراسة للثروة، وهو من الجهة الأخرى ـ وهذا هو الجانب الأعم ـ جزء من دراسة الإنسان[١] .

وهذا التعريف ونحوه مما يدور فى فلكه يركز على أن الاقتصاد يتكون من الانتاج والتبادل والاستهلاك، كما يركز على خلق الثروة، واستخدامها، ويقصد بالثروة جميع الوسائل المادية، والتبادل والتوزيع لإشباع الحاجات البشرية[٢] .

وأما المجموعة الثانية من التعريفات: فتبدأ من الاعتراف بالحاجة البشرية، وندرة وسائل إشباع الحاجات . ومن هذه التعريفات: نجدأن الاقتصاد هو: العلم الذى يدرس السلوك الانسانى كعلاقة بين غايات ووسائل نادرة ذات استعمالات بديلة، ويعنى هذا أن الموارد غير كافية لإشباع الحاجات ولابد من إجراء الاختيار حتى يتسنى استخدام الموارد على النحو الذى يحقق أكبر إشباع[٣] ويلاحظ فى هذه التعريفات فى المجموعتين أنها تجعل الانسان كائن إستهلاكى أكثر من كونه منتجاً، وأنها تنظر إلى ندرة الموارد مع أن الله تعالى جعل لكل دابة فى الأرض رزقها، وطلب من الانسان السعى فى سبيل تحصيله، وهذه التعريفات لا تتعرض إلى ربط تنمية الموارد وإنفاق الناتج بالعقيدة، فلا تجعل من السعى عبادة لله، ولا من الانفاق طاعه له تعالى. ولا تشير إلى أن المال فى الحقيقة هو مال الله عز وجل وأن الإنسان مستخلف فيه، ولا تنبه إلى أن الواجب فيه التكافل الإنسانى إلا جدلاً.

---

[٢] "مارشال" : إقتصادى انجليزى صاحب المؤلف المشهور "مبادئ الاقتصاد السياسى" الذى وضعه عام ١٨٩٠ـ هامش المرجع السابق صـ٤١٩

[١] المرجع السابق صـ٤٢٠

[٢] المرجع السابق ونفس الصحيفة .

[٣] المرجع السابق صـ٤٢١، ٤٢٢ وراجع التعليق على خصائص الاقتصاد الاسلامى صـ٤٢٢، ٤٢٣

وعلى ذلك فهو ينظر إلى الفرد كوحدة قائمة بذاتها تعمل بالأنا وإلى الأنا بالدرجة الأولى، وما بقى من الفتات لابد أن يكون مثمراً فى ماله.

أما مفهوم الاقتصاد فى الشريعة الاسلامية فهو يتسم بخصائص أساسية ينفرد بها عن غيره وهى:

أولاً: الجمع بين الثبات والتطور.

ثانياً: الجمع بين المصلحتين العامة والخاصة.

ثالثاً: الجمع بين المصالح المادية، والحاجات الروحية[١] . وبيان ذلك: ان الجمع بين الثبات والتطور فيعنى أن اصوله فى الشريعة الواردة فى الكتاب والسنة غير قابلة للتبديل أو التغيير، والتطور يعنى به أنه صالح لكل زمان ومكان فى الإطار الوارد فى الأصليين الشريفين.

أما الجمع بين المصلحتين العامة والخاصة فهو يعنى التوفيق بينهما دون أن يطغى واحد على الآخر فالكسب لابد أن يكون حلالاً ولا ضرر ولا ضرار.

وأما الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية فيعنى ذلك قيام الاقتصاد على المنطق الإيمانى بالله تعالى هذا.

ومن مفهوم الاقتصاد فى القرآن الكريم التوسط والاعتدال فى الأمر كما قال تعالى ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ﴾[٢] وقوله ﴿ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾[٣] .

إذن: فالتعبير بالتكافل الاقتصادى ليس نصاً فى المسألة بما يمكن معه استعماله دون أن يدخل فيه ما ليس من أفراده.

أما عن تسمية التكافل المعاشى بـ "التكافل الاجتماعى" فقد تقدم أنه أشمل وأوسع دائرة من التكافل المعاشى فإنه يمكن اندراج التكافل الدفاعى والجنائى،

---

[١] المرجع السابق صـ٤٢١، ٤٢٢ وراجع التعليق على خصائص الاقتصاد الاسلامى صـ٤٢٢، ٤٢٣

[٢] سورة لقمان (١٩)

[٣] سورة المائدة (٦٦)

والأخلاقى والعلمى .. إلخ تحت هذا المسمى، والذى أخذ عن الغربيين الذين لايلزمون أنفسهم الآن بتكافل المجتمع مع الأفراد، إلا فى شئون المعيشة المادية فحسب من طعام ولباس ومسكن، أما ما عدا ذلك من نواحى التكافل الاجتماعى، فلا يعرفونه ولا يؤمنون به فى هذه الحضارة، فرد الحرية إلى أسير مغلوب على أمره، أورد العقل والإتزان إلى ماجن خليع مغلوب على إرادته هو من حقيقة التكافل الإجتماعى، كما يكون تكافل المجتمع فى إطعام جائع، وإسعاف مكروب[١] .

إذن فتسمية هذا الجانب من التكافل بالتكافل المعاشى هو أقرب إلى المقصود من غيره وهو ما ذهب إليه أيضاً الاستاذ الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله تعالى[٢] . ولكى تتضح لنا صورة التكافل المعاشى فى الهدى النبوى الشريف يتطلب ذلك الحديث عن الأمور الآتية:

أولاً: بيان أن المال هو مال الله تعالى.

ثانياً: بيان قيمة العمل فى الهدى النبوى الشريف.

ثالثاً: التكافل فى العهد النبوى الشريف (المكى والمدنى).

رابعاً: مصار التكافل المعاشى كما دلت عليه السنة المباركة.

أولاً: بيان أن المالَ هو مال الله تعالى:

المال فى الحقيقة هو مال الله تعالى، وقد استخلف عباده فيه، فضلاً منه وكرماً قال تعالى: ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ وءاتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾[٥] وقال

---

[١] راجع "اشتراكية الاسلام" د. مصطفى السباعى صـ١٨٤، ١٨٥.

[٢] المرجع السابق صـ١٨٤. وأظن أن تسمية "وزارة الشئون الاجتماعية" قد أخذت من "التكافل الاجتماعى" وإن كانت قائمة على بعض جوانبه، وهى تسمية طيبة لما فيها من الستر على ذوى الحاجات فى التعامل معها والله اعلم.

[٣] سورة الجاثية (٢٧)

[٤] سورة الحديد (٧)

[٥] سوة النور (٣٣)

تعالى: ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير ﴾[٦] .

ومن السنة النبوية ما أخرجه أبو داود بسنده عن أبى الآحوص عن أبيه قال: أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى ثوب دون[١] فقال: ألك مال؟ قال: نعم قال من أى المال؟ قال: قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذا أتاك الله مالاً فليُرا أثر نعمة الله عليك وكرامته[٢] .

وأخرج مسلم بسنده عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء[٣] .

والمال كل ما يتموله الانسان، وله منفعة مباحة شرعاً، ونسبته إلى الانسان ـ كما نرى فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ـ إنما هى نسبة استخلاف ومنفعة، فهى من قبل المجاز وليس الحقيقة. والايمان بهذا الأصل يمنع المرء من كثير من الآثام، كأن يتكبر على الغير بغناه، أو أن يطغى فيتجاوز الحلال إلى الحرام، فى كسبه وإنفاقه، والشح به.

وإن الناس متساوين فى كسب هذا المال حسبما وضع له من أسباب، فقد تفاوتوا فى الأرزاق لحكمة من الله تعالى فى خلقه لينظر كيف يعملون. ولأن فى هذا التفاوت عدالة الله تعالى بين العاملين وغير العاملين، وبين المقتصدين، والمسرفين، كما أن من شأن التفاوت فى الطاقات والقدرات، تفاوت المكاسب وحظوظ العيش، وهذا المال من وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة إذا أحسن الانسان القيام عليه فعن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ... إن هذا

---

[٦] سورة آل عمران (٢٦)

[١] قوله (دون) أى قديم بالٍ

[٢] أخرجه أبو داود / كتاب اللباس / باب فى غسل الثوب / جـ٤ صـ٥١

[٣] أخرجه مسلم / كتاب الرقاق / باب الفتنة بالنساء / جـ١٧ صـ٥٥

المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه، ووضعه فى حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع[٤] .

فهذا هو المال حقيقته وكسبه وغايته، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

ثانياً: مكانة العمل وقيمته فى السنة الشريفة:

هذا المال الذى سخره الله لعباده بقوله ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾[١] حث النبى صلى الله عليه وسلم على إمتلاكه بالعمل والمثابرة والكسب الحلال، فضلاً عن كون السعى فى طلبه عبادة، وطاعة لله تعالى، فالعمل سر الحياة وقوامها، وأساس كرامة الإنسان وشرفه واحترامه، وأساس رقى الأمة وتقدمها، وسلاحها فى السلم والحرب.

فأطيب الكسب عند النبى صلى الله عليه وسلم ما كان من عمل الانسان، أخرج البخارى بسنده عن المقدام بن معدى كرب رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[٢] .

يرى شيخ الاسلام أن فى هذا الحديث فضل العمل باليد، وتقديم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره، ويرى أن الحكمة فى تخصيص دواد بالذكر أن اقتصاره فى أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة لأنه كان خليفة فى الأرض كما قال الله تعالى، وإنما ابتغى الأكل من الطريق الأفضل، ولهذا أورد النبى صلى الله عليه وسلم قصته فى مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد، وهذا يعد ـ أيضاً ـ تقرير بأن شرع من قبلنا شرع لنا لاسيما إذا ورد فى شرعنا مدحه، وتحسينه مع عموم قوله (فبهداهم اقتده)، فذكر الشئ بدليله

---

[٤] أخرجه مسلم / كتاب الرقاق / باب الفتنة بالنساء / جـ١٧ صـ٥٥.

[١] سورة الجاثية (١٣)

[٢] أخرجه البخارى / كتبا البيوع / باب كسب الرجل وعمله بيده / جـ٥ صـ٢٠٩

أوقع فى نفس سامعه، وأن التكسب بالعمل الحلال لايقدح فى التوكل على الله تعالى[٣] .

وأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه[١] . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعمل فى صغره برعى الغنم، وفى شبابه بالتجارة فى مال السيدة خديجة رضى الله عنها، وكان الانبياء يعملون، فقد أخرج ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان زكريا نجاراً"[٢].

وقد أعلى النبى صلى الله عليه وسلم قدر التجارة والتجار حين قال عليه الصلاة والسلام: "التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة"[٣].

فينبغى على الشباب المسلم ألا يتوانى فى طلب العمل ولا يحتقر مهنة من المهن فطريق الكسب الحلال كثير، وأرض الله واسعة، وهيئ من الأسباب مالا حصر له فى أرضه، فلا يأنف شاب من علم ولا صنعة، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وقد قال صلى الله عليه وسلم "من بأت كالاً من عمل يده بأت مغفوراً له"[٤]. وقال عليه الصلاة والسلام "كفى بالمرء إنما أن يضيع من يعول"[٥]. وقال

---

[٣] راجع "فتح البارى" جـ٥ صـ٢٠٩

[١] أخرجه البخارى / كتاب البيوع / باب كسب الرجل وعمله بيده / جـ٥ صـ٢١٠

[٢] اخرجه ابن ماجه / كتاب التجارات / باب الصناعات / جـ٢ صـ٧٢٧

[٣] أخرجه ابن ماجة / كتاب التجارات / باب الحث على المكاسب / جـ٢ صـ٧٢٤، وفى اسناده كلثوم بن جوشن، ضعيف . وقد وثقه ابن معين والبخارى (تهذيب التهذيب جـ٨ صـ٤٤٢) وأخرجه الترمذى من حديث ابى سعيد / كتاب البيوع / باب ما جاء فى التجارة ... / جـ٣ صـ٥٥١ وقال حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث النووى عن ابى حمزة وأخرجه الدارمى / كتاب البيوع / باب فى التاجر الصدوق / جـ٢ صـ٢٤٧. وأخرجه الدارقطنى / كتاب البيوع / الحديث ١٨ / جـ٣ صـ٧.

[٤] أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق جـ٤ صـ٢٨٤. ط بيروت

[٥] أخرجه الحاكمن / كتاب الفتن والملاحم / باب كفى بالمرء إثما أن يضع من يعول / جـ٤ صـ٥٠٠

صلى الله عليه وسلم "اليد العليا خير من اليد السفلى"[٦]. وقال صلى الله عليه وسلم "وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وخادمه فهو صدقه"[٧]. وغير ذلك الكثير من الأقوال الشريفة فى الحث على العمل والكسب الحلال. وقد دعت السنة إلى إحياء الأرض الموات عن طريق العمل لتنمية الموارد، فقد روى الدارمى بسنده عن جابر بن عبد الله أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحيا أرضاً ميته فهى له أجر وما أكلت العافية منها صدقة[١] .

ومفهوم التنمية الاقتصادية فى عصرنا: إحداث تغيير شامل يصيب الإنسان، كما يصيب موارد المجتمع المادية، وينعكس هذا التغيير على مستوى الدخل القومى الذى يزيد بنسبة أكبر من نسبة الزيادة السكانية، حتى تتحقق الرفاهية، أو يرتفع مستوى المعيشة[٢] .

ولا شك أن السنة الشريفة لا تعارض مفهوم التنمية، ولا تعارض أن يكون الانسان ذا مال وملكية واسعة، مدام أنها من كسب حلال، لاضرر فيه ولا ضرار، وأن يؤد المسلم منها حق الله تعالى، ويتصدق بالفضل من ماله، ومن أبلغ ما ورد فى الحث على العمل وعلاج البطالة ما أخرجه أبو داود بسنده عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار أتى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله، فقال: أما فى بيتك شئ؟ قال: بلى حلس نلبس بعضه، ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال: ائتنى بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال من يشترى هذين ـ فباعهما بدرهمين فيمن يزيد ـ وقال اشترى بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدُّماً فأتنى به فأتاه فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[٦] أخرجه مسلم / كتاب الزكاة / باب بيان أن اليد العليا خير ... / جـ٢ صـ٧١٧ ط احياء الكتب العربية

[٧] أخرجه ابن ماجه / كتاب التجارات / باب الحث على المكاسب / جـ٢ صـ٧٢٣.

[١] أخرجه الدارمى / كتاب البيوع / باب من أحيا أرضا ميته فهى له / جـ٢ صـ٢٦٧

ـ والحديث أخرجه الترمذى / كتاب الأحكام / باب ما ذكر فى إحياء أرض الموات / جـ٣ صـ٦٦٣

[٢] "راجع الجانب الاقتصادى فى فقه الامام الشافعى" صـ٤٣٢

عوداً بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً، فذهب الرجل، يحتطب ويبيع، فجاء، وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مقطع، أو لذى دم موجع[1]. وهذا الحديث لو اقتدى به شباب العصر لكان فيه الحل الكثير من مشاكلهم. والله أعلم.

ثالثاً: التكافل المعاشى فى العهد النبوى (المكى - والمدنى):

أولاً العهد المكى:

اندرج فى معنى السنة الشريفة عند المحدثين أخباره صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل النبوة، لأن الحال يستفاد منه، ما كان عليه قبل النبوة من كرائم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التى هى من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم[2].

والشاهد فى هذا أن مبتدأ التكافل المعاشى كان متعمقاً فى وجدان النبى صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة، وكان للوحى فضل إقراره عليه، وتذكيته فى نفسه صلى الله عليه وسلم، ومن دلائل ذلك: القول الجامع للسيدة خديجة رضى الله عنها فى وصفها للنبى صلى الله عليه وسلم بقولها: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك

---

[1] سبق تخريجه عند أبى داود. واختصرت شيئاً منه لذكره فيما تقدم.

- والحديث أخرجه الترمذى / كتاب البيوع / باب ما جاء فى بيع من يزيد / جـ٣ صـ٥٢٢ وقال: حديث حسن.

- وأخرجه ابن ماجه / كتاب التجارات / باب بيع المزايدة / جـ٢ صـ٧٤٠، ٧٤١

- وأخرجه أحمد / جـ٣ صـ١١٤. والحلس بكسر الحاء وسكون اللام كساء يوضع على ظهر البعير أو فراش يبسطه. ومدقع: أى شديد. و(دم موجع) هو أن يتحمل دية فيسعى فيها إلى أولياء المقتول، فإن لم يؤدها قتل المحتمل عنه، فيوجعه قتله. انظر هامش ابن ماجة جـ٢ صـ٧٤١.

[2] راجع "قواعد التحديث" لجمال الدين القاسمى صـ٦٤ ط عيسى الحلبى وشركاه / "دراسات فى علوم الحديث" القسم الأول صـ٣٢. أ.د. العجمى الدمنهورى خليفة ط وزارة الأوقاف.

لتصل الرحم، تقرى الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[٣] .

هل يخرج معنى التكافل عن هذا السلوك للفطرة النبوية السليمة إنه التكافل فى اسمى معانيه، وأشرف غاياته، ومقاصده، وكان لكفالته لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه تحقيقاً لذلك:

أصاب قريشا أزمة شديدة فى بعض أيامها، وكان أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ذا عيال كثيرة، ولم يكن على ثراء من المال، وإن كان ذا ثراء من الشرف والمكانة فى قريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه، وكان من أيسر بنى هاشم: يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه واحداً، وتأخذ أنت واحد، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ماشئتما، فأخذ النبى عليا، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفر فضمه إليه، فلم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تعالى، فكان من أوائل من آمن به وصدق، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى[١].

وزادته النبوة جوداً وكرماً، وإنفاقاً، حتى تخلل التكافل وجدان كل من حوله ممن شرح الله صدره للاسلام. وكان فى صدارة هؤلاء أبا بكر الصديق رضى الله عنه فقد سارع بشراء أعبدٍ كانوا يعذبون فى الله تعالى منهم بلال بن رباح، وأبو فكيهة، وعامر بن فهيرة، وحمامة أم بلال وغيرهم ولا يمسكهم بل يقوم بعتقهم فى سبيل الله تعالى[٢].

---

[٣] انظر "البداية والنهاية" لابن كثير المجلد الثانى صـ٣.

[١] راجع "مختصر سيرة ابن هشام " جـ١ صـ١٦٦،١٦٧ بتصرف

[٢] المرجع السابق جـ١ صـ١٧٤،٢٠١ / "البداية والنهاية" جـ٢ صـ٤٨

وموقف آخر لأبى بكر ألا وهو إنفاقه كل ماله فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم[٣]، فكان أبرز من قام بواجب التكافل بمعناه العام والخاص بعد النبى صلى الله عليه وسلم . أخرج مسلم بسنده عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنّ أَمَنَّ الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الاسلام، لاتبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر[١].

وكان للسيدة خديجة دورها، فإنها لم تدخر جهداً فى مواساة النبى صلى الله عليه وسلم بنفسها ومالها، وكان لمالها أبرز الأثر حين مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب واعتزالهم فى شعب بنى هاشم، أخرج أحمد بسنده عن عائشة قالت: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت، ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها، قال: ما أبدلنى الله خيراً منها، وقد آمنت بى إذ كفرنى الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وآستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء[٢].

هذه نماذج مما كانت فى العهد النبوى فى مكة قبل الهجرة، تظهر ما كان من تكافل معاشى بينهم، وأثر النبى صلى الله عليه وسلم فى تذكية هذه الشعبة الايمانية فى نفوس أصحابه رضوان الله تعالى عليهم.

ثانياً العهد المدنى:

---

[٣] راجع "البداية والنهاية" جـ٣ صـ١٧٧-١٧٩ / "ومختصر السيرة" جـ١ صـ٣٠٣، ٣٠٤ / صحيح البخارى / كتاب الانبياء / هجرة النبى صلى الله عليه وسلم / جـ٨ صـ٢٣٠، ٢٤٨.

[١] أخرجه مسلم / كتاب الفضائل / باب فضائل أبى بكر الصديق/ جـ١٥ صـ١٥٠ (النووى).

ـ وأخرجه البخارى/ كتاب حديث الأنبياء / باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم /جـ٨ صـ٢٣١.

[٢] أخرجه أحمد جـ٦ صـ١١٨. قال ابن كثير عند ذكره لهذه الرواية تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به، وبخالد روى له مسلم متابعة، وفيه كلام مشهور. راجع "البداية والنهاية" جـ٢ صـ١٢٨

فى هذا العهد ظهر التكافل المعاشى بصورة واضحة، عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، تاركين ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وشهد الله تعالى لهم بذلك فى قوله ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[١]. حين وصل هؤلاء إلى المدينة لقيهم إخوانهم من الأنصار كأحسن ما يلقى الرجل أخاه، بكل جود وكرم، وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم ليذهب عمن هاجر وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة فى مكة، ويشد أزر بعضهم بعضاً.

وكانوا بهذا الإخاء يتوارثون، فعن ابن عباس (ولكل جعلنا موالى) قال: ورثة، (والذين عاقدت أيمانكم) كان المهاجرين لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمة للأخوة التى آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينهم، فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى، نسخت، ثم قال: والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم، من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له[٢] .

نماذج من التكافل المعاشى فى هذا العهد:

(أ) سارع الأنصار ملبين دعوة النبى صلى الله عليه وسلم للتضامن مع إخوانهم من المهاجرين، فعرضوا تقسيم أموالهم بينهم، أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قالت الأنصار اقسم بيننا وبينهم النخل قال: لا، قال: يكفوننا المؤنة ويشركوننا فى الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا[٣].

---

[١] سوة الحشر (أية ٨)

[٢] انظر "البداية والنهاية" جـ٣ صـ٢٢٦ والآية من سورة النساء (٣٣)

[٣] أخرجه البخارى / كتاب فضائل الأنصار / باب إخاء النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار / جـ٨ صـ١١٤

وفى رواية للبخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لما قدم المهاجرون المدنية من مكة، وليس بأيدهم، وكانت الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن يعطوهم ثمار أموالهم، كل عام، ويكفوهم العمل والمؤنة[٤].

وظاهر رواية أبى هريرة أنها كانت الأرض مشاركة بينهم أما رواية أنس فهى ظاهرة فى أن هذه الأرض كانت منيحة لهم أى ينتفعون بثمارها دون أن يتملكوا أصولها.

وجمع ابن حجر بينهما بأن المراد بالمقاسمة هنا القسمة المعنوية، وهى التى أجابهم إليها فى حديث أبى هريرة حيث قال: قالوا: فيكفوننا المؤنة، وتشركهم فى الثمار، والمنفى هنا مقاسمة الأصول[١] .

ويمكن الجمع بتعدد المواقف فرواية ابى هريرة تشير إلى أن طائفة من المهاجرين كانوا يزارعون إخوانهم من الأنصار بنصيب من الثمار ويشير إلى ذلك ما أورده البخارى فى كتاب المزارعة بقوله: وقال قيس بن مسلم عن أبى جعفر قال: ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع وزارع علىّ وسعد بن مالك وعبد الله بن مسعود .. "[٢] . نعم، أورد البخارى هذه الآثار لبيان جواز المزارعة لكنها أفادت نوع من التعامل بين المهاجرين والأنصار، ويدل على ذلك إيراد البخارى رواية ابى هريرة فى كتاب المزارعة كدليل على جوازها.

وفى رواية أنس نوع آخر من التكافل وهى التى ذكرها البخارى فى كتاب الهبة، باب فضل المنيحة، العطية وهى على وجهين: البقاء فى يد الصاحب فتكون له، أو أن ينتفع بها وترد إلى مالكها، واشتهرت فى النعم.

وعلى هذا فيكون من الأنصار من منح المهاجر ليقوم فى العمل فيها ويأخذ ثمارها ويؤد ذلك ما جاء فى خبر أنس بن مالك، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما فرغ من

---

[٤] أخرجه البخارى / كتاب الهبة / باب فضل المنيحة / جـ٦ صـ١٧١

[١] راجع "فتح البارى" جـ٦ صـ١٧١

[٢] أورده البخارى / كتاب المزارعة / باب المزارعة بالشطر ونحوه / جـ٥ صـ٤٠٧

قتل أخل خيبر فانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارهم، فرد النبى صلى الله عليه وسلم إلى أمه عزاقها، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهن من حائطه[٣] .

ويوجد نوع ثالث: من هذا التكافل أورده ابن كثير عقب رواية أبى هريرة وفيها: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار "إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد، وخرجوا إليكم فقالوا: أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: هم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر، قالوا: نعم[١]. ويفهم من هذه الرواية أن من الأنصار من كان ضعيفاً لا يقوى على العمل، اولاً خبره له بالزراعة، فكان يكلفه أخاه الأنصارى كفالة تامة، باعطاءه شطراً من ثمار زراعته.

ويخلص من ذلك صور ثلاثة من تكافل المهاجرين والأنصار الأولى: مزارعة المهاجر لأخيه الانصارى، الثانى: إعطاء الأنصار لأخيه المهاجر أرضاً منيحة لينتفع بها. الثالثة: ألا يكلف الأنصارى أخاه المهاجر إن كان ضعيفاً أولا قدره له على العمل بشئ منه، فيعطيه من الثمار بحق كفالة الأخ لأخيه، والله أعلم.

(ب) فى هذا النموذج من التكافل نرى عرضاً سخياً، وعفة رفيعة، وذلك حين يعرض الأنصارى على أخيه المهاجر مالا فيجد فى نفسه القدره على الكسب فيرد ما عرض عليه رداً جميلاً، روى البخارى بسنده عن ابراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع فقال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالا، فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّها لى ، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقك فدلوه على سوق بنى فينقاع، فما

---

[٣] أخرجه البخارى / كتاب الهبة / باب فضل المنيحة / جـ٦ صـ١٧١

[١] "البداية والنهاية" جـ٣ صـ٢٢٧

انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: مهيم، قال: تزوجتُ، قال: كم سقت إليها؟ قال: نواة من ذهب او وزن نواه من ذهب. شك إبراهيم[١] .

(جـ) وكان لنشاط المهاجرين فى العمل وعدم الركون على تضامن الأنصار معهم، اثره فى التكافل المعاشى، فنجد أنهم حين استقر بهم الحال يندفعون إلى تدبر أمر معاشهم لأنفسهم ولغيرهم، وقد رأينا عبد الرحمن بن عوف يسارع بمجرد نزوله إلى التجارة فيعمل على بركة الله تعالى فيها لكونه ماهراً بها، وضرب المهاجرون حينئذٍ مثلاً فى التكافل فيقوم عثمان بن عفان بشراء بئر رومة العذبة ويسبلها. أخرج النسائى بسنده عن الأحنف ابن قيس قال: قال عثمان بن عفان "أنشكم بالله الذى لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من إبتاع بئر رومة غفر الله له، فابتعتها بكذا وكذا ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد إبتعتها بكذا وكذا قال: إجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك، قالوا نعم ...[٢] الحديث.
وفى هذا الخبر دلالات رفيعة الشأن فى مسألة التكافل من جانب، وعلو الهمة فى البذل فى سبيل الله تعالى من جانب آخر.

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب فضائل الأنصار / باب إخاء النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار / جـ٨ صـ١١٣.

[٢] أخرجه النسائى / كتاب الجهاد / باب فضل من جهز غازياً / جـ٦ صـ٤٦،٤٧ (جزء الحديث)
- وأخرجه / كتاب الأحباس / باب وقف المساجد / جـ٦ صـ٢٣٣ وما بعدها.
- وأخرجه الترمذى / كتاب المناقب / باب فى مناقب عثمان / جـ٥ صـ٦٢٧
- وأخرجه الدارقطنى / كتاب الأحباس / باب وقف المساجد والسقايات / جـ٤ صـ١٩٦
- وأخرجه البغوى فى الحسان / كتاب المناقب / باب مناقب عثمان بن عفان رضى الله عنه / جـ٤ صـ١٦٥.

من دلائل الايمان حب الأنصار:

وكان نتيجة البذل والسخاء والكرم الأنصارى أن جعل النبى صلى الله عليه وسلم من دلائل الايمان حب الانصار. روى أنس بن مالك: عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار[١].

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم بأنهم أحب الناس إليه روى أنس بن مالك قال : جاءت إمرأة من الأنصار إلى رسول الله صلىالله عليه وسلم ومعها صبى لها فكلمها رسول الله صلىالله عليه وسلم فقال: والذى نفسى بيده إنكم أحب الناس إلى مرتين[٢] وقد مدحهم الله تعالى بقوله "والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم إلى قوله (أولئك هم المفلحون)[٣].

ولاعجب فى ذلك فإن تكافل الأنصار المعاشى للمهاجرين حين قدومهم إلى المدينه ومؤانستهم، فاق كل حد يمكن أن يوصف به التكافل المعاشى فى عصرنا، بل والتكافل الاجتماعى فى كل نواحيه رضى الله عنهم أجمعين. ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يدربهم عمليا فى مجلسه، فإن جاءه سائل أوصاحب حاجه وليست عنده مايقضيه دعا الناس فى مجلسه إلى كفالته، فقد حَدَّث أبو بردة بن أبى موسى عن أبيه رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله، إذا جاءه سائل، أو طلبت إليه حاجة قال: اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ماشاء(٤). ومراد الحديث التضامن مع صاحب الحاجة، قال ابن بطال: المعنى اشفعوا يحصل لكم الأجر سواء قضيت الحاجة أو لا[٥]. فمن لم يكن عنده ما يعين به، فيحصل له الاجر بالسعى فى قضائها ولو من غيره والله أعلم.

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب فضائل الأنصار / باب حب الأنصار من الايمان / جـ٨ صـ١١٤.

[٢] أخرجه البخارى فىالموضع السابق / باب قول النبى صلىا الله عليه وسلم للأنصار.../ جـ٨ صـ١١٥

[٣] سورة الحشر (٩)

[٥] انظر "فتح البارى" جـ٤ صـ٤٢

دوافع الانصار للتكافل والمسلمون عامه:

أما عن دوافع هذا التكامل من الانصار خاصه والمسلمون عامه فهو يرجع إلى الإرشادات النبوية إلى هذا الطريق، ومايلقاه المنفق عند الله تعالى من حسن الجزاء فى الدنيا بحسن الذكر، والبركه فى المال، والأهل والنفس، ومايجده عندالله فى الاخرة من حسن العاقبة.

ومن هذه الارشادات والتوجيهات النبويه وصايته بالجار ومما اشتهر فى ذلك ماروته السيده عائشه رضى الله عنها انها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه[١].

ومن أساليب التكافل المعاشى بين الجيران مارواه أبو ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك[٢] .

ومن الارشادات النبويه بيان أن إقراء الضيف وكفالته المعيشيه حق له، أخرج البخارى بسنده عن عقبه بن عامر رضى الله عنه أنه قال: قلنا يارسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم.[٣] والحق أن النصوص التى تدفع إلى التكافل المعاشى تواترت بها الاخبار، بما يدفع كل قارىء لها بقلب عامرٍ بالإيمان ألا يدخر جهدا فى بذل ما يقدر عليه. لاصحاب الحاجات الملحةً، وفى صدارتها إقامة الأود بتوفير الحاجات الضرورية من عيش وملبس ومسكن، وتأمين صحى وماشابه ذلك مما لايستغنى عنه إنسان.

---

[١] أخرجه مسلم / كتاب البر والصلة/ باب الوصية بالجار / جـ١٦ صـ١٧٦

[٢] المصدر السابق ونفس الموضع جـ١٦ صـ١٧٧

[٣] أخرجه البخارى/كتاب الادب/ باب إكرام الضيف وخدمته/جـ١٣ صـ١٤٩

النظام الأشعرى فى التكافل المعاشى:

ومن أرفع الأمثله التى ضمتها السنه المباركه فى التكافل المعاشى نظام الأشعريين، أخرج البخارى بسنده عن أبى موسى قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: إن الأشعريين، إذا أرملوا فى الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينه جمعوا ماكان عندهم فى ثوب واحدٍ، ثم إقتسموه بينهم فى إناءٍ واحدٍ بالسويه فهم منى وأنا منهم[١].

ففى قوله (إذاأرملوا) أى فنى زادهم، فالجمله كنايه عن شدة الحاجه فكأنهم لصقوا بالرمل من القلة، كماقال تعالى: ﴿ أو مسكينا ذا متربه ﴾[٢] .وقوله (فهم منى وانا منهم) قال ابن حجر اى هم متصلون بى، وقيل المراد فعلوا فعلى فى هذه الموساة وفى الحديث فضيلة عظيمه للاشعريين قبيله أبى موسى، وتحدث الرجل بمناقبه[٣]، وجواز هبة المجهول، وفضيلة الأيثار والمواساة، واستحباب خلط الزاد فى السفر وفى الإقامة أيضاً[٤] ومراد الجملة عند النووى إباحة بعضهم بعضا ومواساتهم بالموجود[٥].

إن الدين للواقع وليس مجرد أسس ومبادىء وقواعد عرية عن التطبيق، فلو طبق منهج السنه فى التكافل ماكان فىالامة الاسلامية جائع ولاعار ولامسكين فالايمان بالله تعالى، وطاعة النبى صلىالله عليه وسلم، يستتبع كل عمل شريف، وكل خصله طيبة، وتحرى البر فى الاقوال والاعمال، وإتباع مكارم الأخلاق فى العلاقات، لاسيما فى التكافل المعاشى.والله أ علم .

---

[١] الحديث متفق عليه: أخرجه البخارى/كتاب الشركه/ باب فى الطعام / جـ٦ صـ٥٥

- وأخرجه مسلم/ كتاب الفضائل/باب من فضائل الاشعريين رضى الله عنهم/جـ صـ٦١،٦٢.

[٢] سورة.

[٣] هذا الحديث الواقع من أى موسى ليس على جهة الفخر أوالكبر، وإنما يوجه إلى الدعوة إلى التكافل ومدح النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الخصلة.

[٤] راجع (فتح البارى)جـ٦ صـ٥٥ بتصرف.

[٥] "شرح صحيح مسلم " للنووى جـ١٦ صـ٦٢.

رابعاً: مصادر التكافل الاجتماعى وموارده:

التعامل مع السنه الشريفه بأناه وحكمه، يظهر مدى النظـام والدقـة والـترتيب فى أى قضية من القضايا، فالنتائج فيها تقوم على مقدمات، بشكل متكامل مبنى علـى أسباب متوافقة مع كل عقل حكيم، بعيـدة عـن الاهـواء والشـهوات، والميـول النفسـية أوالمصلحة الشخصية، لايفارقها لحظة من اللحظات الشعور الإيمـانى بالله تعـالى، وبذلك تختلف عن أى نظام بشرى مجرد عن الإتصال الروحى. كما أن منهج السـنة المباركة يتميزعن القوانين البشرية، بسعة الإدراك لأى قضية من القضايا، وأبعادهـا وحدودها، فهى ناطقة بوحـى اللـه تعـالى العليم بكـل شـىء، الخبـير بدقـائق الأمـور والأشياء، فتوضع الأشياء جنباً إلى جنـب، حتـى تؤتـى ثمارهـا جنيـة مباركـه طيبـة، وتحقق المقاصد والغايات والنتـائج بأسـلوب علمـى، وأسـس قويـة متينـة ومـن أبلـغ مايقال فى السنة أنها برهان قائم للدهر قيام المنارات فى الساحل علـى نبوتـه صلـى الله عليه وسلم -كما يقول الرافعى - يثبت ببرهان الفلسفة، وعلـوم النفس أنـه روح لن تتعزى عن شىء منها بشىء من غيرها كائنا ماكان، فلاتتبع إلامنهاج رب العـزة جل وعلا، فليس مبتدعاً لشريعة من قبل نفسه، وليس متعلقا بالمصادقـات الكونيـه أو الاجتماعية، ولا رجل الأرض فى الأرض، ولكن رجل السماء فى الارض أ.هـ[1].

فلو أن سائلا سأل: إذا كانت السنة المطهرة داعية إلى التكافل المعاشى، فمـا هى مصادر هذا التكافل؟

للإجابة عن هذا السؤال: نجد أن السنة ـ وهى تالية القرآن الكريم فى التشـريع ومنـه انطلاقها ـ لم تغفل ذلك، وإنما وجهة ذوى الإيمان إلى موارد متضافرة تحقق الهـدف بأسلوب غاية فى الرقى، وهى فى الوقت نفسه غير قابلة للنضوب، أو الاهتزاز، بـل تزداد هذه الموارد فى الكم والثبات والرسوخ كلما ازداد الإيمان بالله تعـالى، وفيمـا يلى طائفة من موارد التكافل المعاشى:

---

[1] انظر "وحى القلم" لمصطفى صادق الرافعى جـ٢ صـ٢٣ .ط مطبعة الاستقامة ط١٣٦٦-١٩٤٧.

أولاً: الزكاة أحد مصادر التكافل المعاشى:

الزكاة هى الركن الثالث من أركان البناء الاسلامى، جعلها الله تعالى فريضة محكمة على عباده القادرين المالكين للنصاب، طهرة لهم وتزكية لأنفسهم، قال تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾[١] وقال: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾[٢]. ونص النبى صلى الله عليه وسلم فى أقواله على فرضها، فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث معاذا رضى الله عنه إلى اليمن فقال: ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنياهم وترد فى فقراءهم[٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال والذى نفسى بيده، لا أزيد على هذا، فلمّا وَلىّ، قال النبى صلى الله عليه وسلم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا[٤].

وحذر النبى صلى الله عليه وسلم من جمع المال، وترك صرفه فى حقه لكسب الجاه، والتنعيم بطيب المطعم والملبس والمركب والمسكن، ولأنه أعرض عن إخراج حق الله تعالى، فى مال الله، وترك مواساة الفقير وَوَلاَّه ظهره، أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

---

[١] سورة التوبة (١٠٣)

[٢] سورة البقرة (١١٠)

[٣] أخرجه البخارى / كتاب الزكاة / باب / جـ٤ صـ٤ (ابن حجر)

[٤] المصدر السابق جـ٤ صـ٦،٧

وسلم " من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له ذبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذه بلهزمتيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ﴾. الآية[١] .

ويبين النبى صلى الله عليه وسلم أن ما أدى زكاته فليس بكنز، أخرج ابن خزيمة بسنده عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره[٢].

ونبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى نظافة المال وكونه كسب طيب لأن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب، فأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تصدق بعدل تمر من كسب طيب، ولايقبل الله إلا الطيب، وأن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل[٣]. وهذا تفسير وبيان لقوله عز وجل ﴿ ياأيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾[٤] وعلة الرفض لغير الطيب، أنه غير مملوك للمتصدق، وهو ممنوع من التصرف فيه كما يبين القرطبى - والمتصدق به متصرف فيه، فلو قبل منه لزم أن يكون الشئ مأموراً منهياً من وجه واحدٍ وهو محال[٥]. وأداء الزكاة خالصة لوجه الله تعالى، مرضاة للرب، وعتق لصاحبها من النار مهما

---

[١] المصدر السابق / باب إثم مانع الزكاة / جـ٤ صـ١٢،١٣ والآية (١٨٠ من سورة آل عمران) (مثل) أى صور أو ميز (والشجاع) الحية الذكر (والأقرع) الذى تمعط رأسه لكثرة سمه (ذبيبتان) تثنية ذبيبة لحمتان على رأسه مثل القرنين (لهزمتيه) شدقيه.

[٢] أخرجه ابن خزيمة فى صحيحة / كتاب الزكاة / باب دليل آخر على أن الوعيد للمكتنز ... / جـ٤ صـ١٣، ط الأولى - ١٣٩٥-١٩٧٥ / المكتب الاسلامى بيروت.

[٣] أخرجه البخارى / كتاب الزكاة / باب الصدقة من كسب طيب / جـ٤ صـ٢٠-٢٢ و(فلوه) الفلو هو الفرس الصغير

[٤] سورة البقرة (٢٦٧)

[٥] امظر "فتح البارى" جـ٤ صـ٢١ بتصرف

قَلَّتْ، روى عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة"[١].

وقد وضعت السنة مقداراً لما يخرج من كل نوع من المال، لا يرهق صاحب المال، ولا يحرجه فى دينه، وماله، فعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل، وليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس فيما دون خمسة أو سق صدقة"[٢].

ومن فقه البخارى فى صحيحه يقول فى "باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى. ومن تصدق وهو محتاج، أو أهله محتاج أو عليه دين فالدين أحق أن يقضى من الصدقة، والعتق والهبة، وهو رَدٌّ عليه، ليس له أن يتلف أموال الناس"[٣]. وأخرج تلو هذا بسنده عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول"[٤].

وأوصى النبى صلى الله عليه وسلم عماله بالأخذ من أوسط المال، وترك النفيس الذى تتعلق به نفس صاحبه، فإن طابت نفسه بشئ منه فله أجره، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما بعث معاذا على اليمن قال: "وتوق كرائم أموال الناس"[٥]. وفى رواية ابن خزيمة عن ابن عباس "فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[٦] .

ونبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة تنمية هذا المصدر، الذى يعد مورداً ثابتاً من موارد التكافل المعاشى، فأخرج البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مسلم يغرس غرساً، أو

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب الزكاة / باب اتقوا النار ولو بشق تمرة / جـ٤ صـ٢٦

[٢] الموضع السابق / باب زكاة الورق / جـ٤ صـ٥٢،٥٣

[٣] الموضع السابق / باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى / جـ٤ صـ٣٦

[٤] الموضع السابق / باب لاصدقة إلا عن ظهر غنى / جـ٤ صـ٣٧،٣٨

[٥] الموضع السابق / باب لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة / جـ٤ صـ٦٤ (جزء الحديث)

[٦] أخرجه ابن خزيمة / كتاب الزكاة / باب الزجر عن أخذ المصدق خيار المال / جـ٤ صـ٢٣ (جزء الحديث)

يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان، أو بهيمه، إلا كان له به صدقة"[١]. وهذا الحديث وإن كان فيه عموم الحث على الزراعة والغرس إلا أنه يرشد إلى تنمية موارد الزكاة فكلما اعتنى الزارع بزراعته، وتوسع فيها أفقياً كلما زاد انتاجها ويتبع ذلك زيادة ما يخرج منها للزكاة.

أخرج مالك في بلاغاته أن عمر بن الخطاب قال: "واتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة" وفي بلاغاته أيضاً عن السيدة عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم " كانت تعطى أموال اليتامى الذين فى حجرها من يتجر لهم فيها"[٢].

ولما كان هذا المورد بالغ الأهمية في مراعاة ذوى الحاجات شَرَّع النبى صلى الله عليه وسلم قتال ما نعى الزكاة، وهو ما فعله أبو بكر الصديق حين وُلِىَ خلافة المسلمين، أخرج مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا منى زمانهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"[٣].

وحَدَّدَ الله عز وجل مصارف هذه الموراد بما يستوعب أصحاب الحاجات فى ثمانية أنواع فقال تعالى: ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾[٤].

وبهذا التوجيه إلى مصارف الزكاة ينقطع أطماع الأغنياء فى الحصول على شئ منها، فلا يجوز الخروج عن هذه الدائرة التى بينها الله تعالى للصدقة

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب المزارعة / باب فضل الزرع والغرس / جـ صـ٤٠٠

[٢] الموطأ / كتاب الزكاة / باب زكاة أموال اليتامى والاتجار لهم فيها / جـ١ صـ٢٤٥، ٢٤٦ ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

[٣] أخرجه مسلم / كتاب الايمان / باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله / جـ١ صـ٢١٢

[٤] سورة التوبة (٦٠)

المفروضة فالزكاة حق الله تعالى، فيما استخلف الناس فيه من مال، يتصرف فيه كيف يشاء، وينظر كيف نعمل.

فالزكاة موجهة إلى أصحاب الحاجات من الفقراء والمساكين وما يلحق بهم من ذوى العاهات غير القادرين على الكسب كالعميان، وضعاف البصر، والصم والبكم والصرعى والمعتوهين، وضعاف البنية من الشيوخ، وأصحاب الأمراض المزمنة التى لا يرجى البرء منها، وتحت قوله (وفى سبيل الله) هى جهة ينتفع بها كافة المسلمين. وهذا المصدر للتكافل المعاشى يشمل جميع أنواع المال الذى بلغ النصاب وحال عليه الحول على خلاف فى بعض مسائله كحلى الزينة.

وكان يأخذها النبى صلى الله عليه وسلم فيوزعها فى مصادرها ومن بعده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما كذا عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه، فلما كثرت الأموال الباطنة فى زمانه كالذهب والفضة وأموال التجارة طالب بها زماناً ثم رأى أن فى تتبعها حرجاً على الأمة، وفى تفتيشها ضرراً بأرباب الأموال فوض الأداء لأربابها[1].

وبعد هذه الصورة الموجزة عن هذا المصدر للتكافل المعاشى، فالاعتقاد أنه لو تحقق فى الأمة الأسلامية فى عصورنا كما رسمته قواعد السنة المباركة، لأصبح للأمة ما تنشده من سعادة وارفة الظلال، يسعد فيها الغنى بمال أطاع الله فيه دون مَنٍّ ولا أذى، ويسعد الفقير وذوى الحاجات، بما هيئ الله تعالى لهم من نعمة العون، والشعور الإسلامى تجاه الأخوة، كما أن فيه صلاح لنفوس الأغنياء من البخل والشح والقسوة على المحتاجين، فضلاً عن تدريب أنفسهم بهذا الواجب الشرعى على البذل والسخاء لوجه الله تعالى، وصلاح لذوى الحاجات، فتطهر نفوسهم من الحسد والحقد على الأغنياء، والطمع فى أموالهم بغير طريقها الشرعى، وصلاح لأحوال المجتمع الاقتصادية والاجتماعية، والنجاة من الصراع الطبقى.

---

[1] راجع "بدائع الصنائع" للكاسانى جـ٢ صـ٨٨٣ وما بعدها ط مطبعة الإمام بمصر.

ثانياً: صدقة الفطر من مصادر التكافل المعاشى:

والمراد بصدقة الفطر: هى صدقة تجب بالفطر من رمضان، على كل مسلم شهد الشهر، وعلى من يعوله من الزوجة والأولاد، والأعبد وكل من تلزمه نفقته، وقد جمع أصحاب المذاهب الأربعة على وجوبها على كل مسلم حر مالك للنصاب الفاضل عن حاجته الأصلية[١] . أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير[٢] .

فهذا المورد الثانى للتكافل المعاشى لإدخال الفرح والسرور على المحتاجين فى يوم العيد، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإخراجها قبل العيد، ليتمكن المحتاج من قضاء حاجته، أخرج ابن خزيمة بسنده عن ابن عمر: أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بإخراج زكاة الفطر قبل خروج الناس إلى الصلاة، وأن عبد الله بن عمر كان يؤدى قبل ذلك بيوم أو يومين[٣]. وفهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توجيهاته السديدة، ومقاصدها، فلم يألوا جهداً فى الاتباع والسمع والطاعة وإخراج ما يزيد عن حاجاتهم بل، ويؤثرن على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وحرص النبى عليه الصلاة والسلام ألا يُحْرَمَ المسلم خير هذا اليوم، وأن تعير المرأة أختها ثوباً لتشهد به العيد، إن لم يكن عندها. أخرج البخارى بسنده عن

---

[١] راجع حاشية ابن عابدين جـ٢ صـ٣٥٧ / صحيح البخارى / كتاب الزكاة / أبواب صدقة الفطر/ جـ٤ صـ١١٠/ "فتح البارى" لابن حجر جـ٤ صـ١١٠،١١١/ "النفقة على المذاهب الأربعة" قسم العبادات ط وزارة الأوقاف الطبعة السادسة ١٣٩٦-١٩٧٦.

وفى المسألة خلاف بين الفقهاء فى الفرضية والوجوب والنسخ بزكاة الأموال، وتعقب دعوى النسخ بأنه لا يلزم من نزول فرض سقوط فرض آخر، وفيه حديث النسائى وابن خزيمة عن قيس بن سعد قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر، قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت لم يأمرنا و لم ينهنا، ونحن نفعله. أخرجه ابن خزيمة / جماع أبواب صدقة الفطر ... / جـ٤ صـ٨١.

[٢] أخرجه البخارى / كتاب الزكاة / أبواب صدقة الفطر / جـ٤ صـ١١١.

[٣] أخرجه ابن خزيمة / جماع أبواب صدقة الفطر / باب الأمر بأداء صدقة الفطر.. / جـ٤ صـ٩٠،٩١

لتصل الرحم، تقرى الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[٣] .

هل يخرج معنى التكافل عن هذا السلوك للفطرة النبوية السليمة إنه التكافل فى اسمى معانيه، وأشرف غاياته، ومقاصده، وكان لكفالته لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه تحقيقاً لذلك:

أصاب قريشا أزمة شديدة فى بعض أيامها، وكان أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ذا عيال كثيرة، ولم يكن على ثراء من المال، وإن كان ذا ثراء من الشرف والمكانة فى قريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه، وكان من أيسر بنى هاشم: يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه واحداً، وتأخذ أنت واحد، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ماشئتما، فأخذ النبى عليا، فضمه إليه، وأخذ العباس جعفر فضمه إليه، فلم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تعالى، فكان من أوائل من آمن به وصدق، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى[١].

وزادته النبوة جوداً وكرماً، وإنفاقاً، حتى تخلل التكافل وجدان كل من حوله ممن شرح الله صدره للاسلام. وكان فى صدارة هؤلاء أبا بكر الصديق رضى الله عنه فقد سارع بشراء أعبدٍ كانوا يعذبون فى الله تعالى منهم بلال بن رباح، وأبو فكيهة، وعامر بن فهيرة، وحمامة أم بلال وغيرهم ولا يمسكهم بل يقوم بعتقهم فى سبيل الله تعالى[٢].

---

[٣] انظر "البداية والنهاية" لابن كثير المجلد الثانى صـ٣.

[١] راجع "مختصر سيرة ابن هشام " جـ١ صـ١٦٦،١٦٧ بتصرف

[٢] المرجع السابق جـ١ صـ١٧٤، ٢٠١ / "البداية والنهاية" جـ٢ صـ٤٨

وموقف آخر لأبى بكر ألا وهو إنفاقه كل ماله فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم[٣]، فكان أبرز من قام بواجب التكافل بمعناه العام والخاص بعد النبى صلى الله عليه وسلم . أخرج مسلم بسنده عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنّ أَمَنَّ الناس علىّ فى ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الاسلام، لاتبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر[١].

وكان للسيدة خديجة دورها، فإنها لم تدخر جهداً فى مواساة النبى صلى الله عليه وسلم بنفسها ومالها، وكان لمالها أبرز الأثر حين مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب واعتزالهم فى شعب بنى هاشم، أخرج أحمد بسنده عن عائشة قالت: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء، قالت: فغرت يوماً فقلت، ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها، قال: ما أبدلنى الله خيراً منها، وقد آمنت بى إذ كفرنى الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وآستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء[٢].

هذه نماذج مما كانت فى العهد النبوى فى مكة قبل الهجرة، تظهر ما كان من تكافل معاشى بينهم، وأثر النبى صلى الله عليه وسلم فى تذكية هذه الشعبة الايمانية فى نفوس أصحابه رضوان الله تعالى عليهم.

ثانياً العهد المدنى:

---

[٣] راجع "البداية والنهاية" جـ٣ صـ١٧٧-١٧٩ / "ومختصر السيرة" جـ١ صـ٣٠٣، ٣٠٤ / صحيح البخارى / كتاب الانبياء / هجرة النبى صلى الله عليه وسلم / جـ٨ صـ٢٣٠، ٢٤٨.

[١] أخرجه مسلم / كتاب الفضائل / باب فضائل أبى بكر الصديق/ جـ١٥ صـ١٥٠ (النووى).

ـ وأخرجه البخارى/ كتاب حديث الأنبياء / باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم /جـ٨ صـ٢٣١.

[٢] أخرجه أحمد جـ٦ صـ١١٨. قال ابن كثير عند ذكره لهذه الرواية تفرد به أحمد وإسناده لا بأس به، وبحالد روى له مسلم متابعة، وفيه كلام مشهور. راجع "البداية والنهاية" جـ٢ صـ١٢٨

فى هذا العهد ظهر التكافل المعاشى بصورة واضحة، عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، تاركين ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وشهد الله تعالى لهم بذلك فى قوله ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[١]. حين وصل هؤلاء إلى المدينة لقيهم إخوانهم من الأنصار كأحسن ما يلقى الرجل أخاه، بكل جود وكرم، وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم ليذهب عمن هاجر وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة فى مكة، ويشد أزر بعضهم بعضاً.

وكانوا بهذا الإخاء يتوارثون، فعن ابن عباس (ولكل جعلنا موالى) قال: ورثة، (والذين عاقدت أيمانكم) كان المهاجرين لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمة للأخوة التى آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينهم، فلما نزلت (ولكل جعلنا موالى، نسخت، ثم قال: والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم، من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له[٢] .

نماذج من التكافل المعاشى فى هذا العهد:

(أ) سارع الأنصار ملبين دعوة النبى صلى الله عليه وسلم للتضامن مع إخوانهم من المهاجرين، فعرضوا تقسيم أموالهم بينهم، أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قالت الأنصار اقسم بيننا وبينهم النخل قال: لا، قال: يكفوننا المؤنة ويشركوننا فى الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا[٣].

---

[١] سوة الحشر (أية ٨)

[٢] انظر "البداية والنهاية" جـ٣ صـ٢٢٦ والآية من سورة النساء (٣٣)

[٣] أخرجه البخارى / كتاب فضائل الأنصار / باب إخاء النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار / جـ٨ صـ١١٤

أن يسأل ما الدافع لكل هذا التكافل وما الذى يكمن خلفه، حتى ينزل عن أحب الأموال إليه؟ مع أن الرأسمالى يضن فى غالب أحواله بالصدقة، ويعتبرها نقصا فى رأس ماله؟

وإجابة لهذا السؤال يورد البخارى بسنده قصة أبى طلحة عن أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب ماله إليه بَيْرحاءَ، مستقبلة المسجد، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قام أبو طلحة فقال يا رسولف الله : إن الله يقول : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبونس﴾ [١] وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذلك مال رابح أو رايح ـ شك ابن مسلمة ـ وقد سمعت ما قلت، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين، قال أبو طلحة: افعل ذلك يارسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه[٢].

إنه دافع الإيمان والوثوق بالله تعالى وأن ما عنده خير وأبقى، لقد قبلها النبى صلى الله عليه وسلم معجباً به، وشكر صنيعه، ثم أمره أن يخص بها أهله وقرابته، إنه تكافل معاشى بين الأهل والعشيرة عن طيب خاطر، وقناعة نفس، إنه إقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم، وسمعا وطاعة واستجابه لله رب العالمين، أخرج الدارقطنى بسنده عن عمرو بن الحارث وهو يقول: "ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سلاحه وبغلته البيضاء، وأرضا جعلها صدقة[٣]. فالوقف مصدر راق من مصادر التكافل المعاشى.

---

[١] سورة آل عمران (٩٢)

[٢] أخرجه البخارى / كتاب الوصية / باب إذا وقف أرضا و لم يبين الحدود ... / جـ٦ صـ٣٢٥،٣٢٦

[٣] أخرجه الدار قطنى / كتاب الأحباس / حديث (٢) / جـ٤ صـ١٨٥

خامساً: صدقة التطوع من مصادر التكافل المعاشى:

المراد بصدقة التطوع: عطاء غير واجب وغير مقدر شرعاً، بل تعينه القدرة، والحاجة الشخصية للمحتاج أو حاجة المجتمع، فهى غير الزكاة المفروضة. وصدقة التطوع فى مفهوم السنة المباركة، باب من أبواب التكافل المعاشى مفتوح على مصراعيه لا يتقيد بزمان، أو مكان، أو جهة، أو مقدار، فقد أطلقت السنة الشريفة عنانها لتجوب بإذن الله تعالى بين الناس كافة، على مختلف طبقاتهم، وعلاقاتهم بعضهم ببعض.

ودافع صدقة التطوع الرحمة التى ملأ الله تعالى بها قلوب عباده المؤمنين، فتغيض أيديهم بالعطاء والإحسان، والبذل والسخاء، فخير الناس منزلة، وأرفعهم مكانة عند المولى عز وجل من عُنِى بأهله، وجيرانه، وإخوانه المسلمين، وأدخل عليهم البشر والسرور والخير، وكان بهم باراً رحيماً. ويجمع النبى صلى الله عليه وسلم التكافل المعاشى وغيره تحت قول جامع، فعن جابر بن عبد الله رضى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "كل معروف صدقة"[١] .

قال عبد الله بن سلام رضى الله عنه: لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم جئت فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: "يأيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"[٢]. وهذا حديث جامع لكثير من التوجيهات الشريفة، والتى كان فى صدارتها "التكافل المعاشى" وأشار إليه بقوله "أطعموا الطعام".

---

[١] أخرجه البخارى / كتاب الأدب / باب كل معروف صدقة / جـ١٣ صـ٥٥

[٢] أخرجه البغوى وهذا لفظه / كتاب الزكاة / باب فضل الصدقة / جـ٢ صـ٤٩

- والحديث أخرجه الترمذى / كتاب صفه القيامة / باب / جـ٤ صـ٦٥٤ وقال هذا حديث صحيح

- وأخرجه ابن ماجة/ كتاب إقامة الصلاة / باب ما جاء فى قيام الليل / جـ١ صـ٤٣٣

- وأخرجه الدارمى / كتاب الصلاة / باب فضل صلاة الليل / جـ١ صـ٣٤٠،٣٤١

- وأخرجه أحمد جـ٥ صـ٤٥١

وحين حث النبى صلى الله عليه وسلم على انفاق الفضل، والزائد عن الحاجة، أيضاً يدعو إلى التكافل المعاشى: أخرج مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: بينما نحن فى سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل[١].

وهذا القول الشريف فيه الدعوة إلى التكافل عن طريق صدقة التطوع، ويرى النووى: أن فى هذا الحديث الحث على الصدقة والجود، والمواساة والإحسان إلى الرفقة والأصحاب والاعتناء بمصالح الأصحاب، وأمْر كبير القوم أصحابه بمواساة المحتاج، وأنه يكفى فى حاجة المحتاج بتعرضه للعطاء، وتعريضه من غير سؤال، وهذا معنى قوله: "فجعل يصرف بصره" أى متعرضاً لشئ يدفع به حاجته[٢].

وصدقة التطوع يندرج فيها صلة ذوى الأرحام، وما ينفقه الرجل على زوجته وأهله يشير إلى ذلك مارواه أبو مسعود البدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم: "إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة[٣].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك[٤]. وعن أبى هريرة ـ أيضاً ـ يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق

---

[١] أخرجه مسلم / كتاب اللقطة / باب استحباب المواساة بفضول الماء / جـ١٢ صـ٣٣ (النووى)

[٢] راجع "شرح صحيح مسلم" للنووى جـ١٢ صـ٣٣

[٣] أخرجه مسلم / كتاب الزكاة / باب فضل النفقة على الأقربين ... / جـ٧ صـ٨٨

[٤] أخرجه مسلم / كتاب الزكاة / باب فضل النفقة على العيال ... / جـ٧ صـ٨٢

عليك[٥] وهذا الحديث القدسى عن المولى عز وجل، يحث على الانفاق فى سبيله، دون خشية الفقر، ومن القواعد الكلية قوله تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ .سورة الزلزلة (٧)

ولا يشترط فى صدقة التطوع أن يكون مالا، كما لا يشترط فى التكافل المعاشى أيضاً، هذا مثال اخرجه ابن خزيمة - دال على ذلك - عن سعد قال: قلت يارسول الله إن أمى ماتت أفأتصدق عنها؟ فقال نعم، فقلت أى الصدقة أفضل؟ قال: أسقاء الماء[١].

فهذا التوجيه النبوى الشريف إلى إسقاء الماء فهو تكافل معاشى إلى شئ كان المجتمع فى ذاك الوقت فى حاجة إليه. وهو يشير أيضاً إلى تكافل الأفراد مع الدولة فى قضاء حاجة الفراد، فما أحوجنا إلى فهم صحيح للسنة المباركة، وإيمان عميق، ومحبة صادقة للعمل بالتوجيهات الشريفة، لينطلق أهل الثراء فى ميدان التكافل لايخشون من ذى العرش إقلالا، فتعود إلى الدنيا سيرتها الأولى، وأخلاق السلف الصالح فى جودهم وإيثارهم، وفى بذلهم وانفاقهم.

سادساً: الهبة والعطية والنحلة:

تعد الهبة من مصادر التكافل المعاشى وهى فى اللغة إيصال الشىء للغير بما ينفعه سواء كان مالا أو غير مال، يقال وهبت له مالاً ووهبه الله تعالى مالا، وشرعاً: تمليك بلا عوض فى حياة، وأركانها واهب، وموهوب له، وموهب، وشرطها عدم التعليق، وعدم التأقيت، ويتم ملكها بالقبول والقبض، وأهلية الواهب والموهوب له.

---

[٥] المصدر السابق / باب الحث على النفقة / جـ٧ صـ٧٩

[١] اخرجه ابن خزيمة / جماع أبواب الصدقات / باب فضل سقى الماء / جـ٤ صـ١٢٣

وفى معنى الهبة العطية والنحلة وهما: عطاء بلا عوض أو مطلقاً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وءاتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ أى عطية[٢].

فمن وهب إنسانا شيئا مما تموله على جهة المنفعة له ولأهله، ففى غالب الأحوال يكون الموهوب له فى حاجة إليها، فتواسه، وتقضى حاجته، وتشد أزره، وتعينه على طاعة الله تعالى فى أمن واستقرار. وهذه تختلف عن عطايا وهبات الحكام والأمراء، وولاة الأمر لحاشيتهم ومن حولهم وما شابه ذلك.

وترجع هذه الهبة إلى ما ورد فى السنة الشريفة، وأخرج مسلم بسنده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: حملت على فرس عتيق فى سبيل الله، فأضاعه صاحبه، فظننت أنه بائعه برخص، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: لا تبتعه، ولا تعد فى صدقتك، كالكلب يعود فى قيئه[١].

وفى رواية عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: العائد فى هبته كالكلب يقئ ثم يعود فى قيئه[٢].

فالهبة والعطية والنحلة حين تكون وجهتها أهل الحاجة من الفقراء والمساكين والضعفاء، لا شك أنها تنزل منهم منزلة الماء العذب فى يوم شديد قيظه، وبنفس المعنى لصاحبها يوم القيامة، فإن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

سابعاً: العُمْرَى من مصادر التكافل المعاشى:

أَعْمَرَه داراً أو أرضاً أو إبلا أعطاه إياها، وقال هى لك عُمْرى أو عمرك فإذا متَّ رجعت إلىّ[٣]. فيراد بالعمرى: أن يقول الرجل لآخر الدار أو نحوها مما

---

[٢] راجع "كتاب شرح الأحاديث المختارة" لفضيلة الاستاذ/ عبد الحميد الشاذلى صـ٣، ١٦،٤

ـ والآية من سورة النساء (٤)

[١] أخرجه مسلم / كتاب الهبة / باب كراهية شراء الانسان ما تصدق به ممن تصدق عليه/ جـ١١ صـ٦٢

ـ وأخرجه البخارى / كتاب الجهاد / باب إذا حمل على فرس فرآه تباع / جـ٦ صـ١٣٩، ١٤٠

[٢] أخرجها مسلم / كتاب الهبة / باب تحريم الرجوع فى الصدقة والهبة / جـ١١ صـ٦٥

[٣] راجع " مختار الصحاح" للرازى صـ٤٥٤

ينتفع به لك ولعقبك، فإذا قال هى لك ما عشت فإنها ترجع إلى صاحبها. وألفاظها أعمرتك هذه الدار مثلا، أو جعلتها لك عمرك، أو حياتك، أو ما عشت، أو حييت، أو بقيت أو ما شابه هذا المعنى.

والأصل فى العمرى ما ورد فى السنة المباركة وأخرجه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أيما رَجُل أعَمْرَ عمرى له ولعقبه، فقال:قد أعطيتها وعقبك ما تبقى منكم أحدا فإنها لمن أعطيها ، وأنها لا ترجع إلى صاحبها من اجل أنه أعطى عطاء وقعت فيه المواريث[١].

وفى رواية عن جابر قال: إنما العمرى التى أجازها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول: هى لك ولعقبك، فأما إذا قال هى لك ما عشت، فإنها ترجع إلى صاحبها، قال معمر: وكان الزهرى يفتى به[٢].

وحكى النووى عن اصحابه فى العمرى ثلاثة أحوال: **أحدهما**: أن يقول أعمرتك هذه الدار فإذا مت فهى لورثتك، أو لعقبك فتصح بلا خلاف، ويملك بهذا اللفظ رقبة الدار، وهى هبة لكنها بعبارة طويلة، فإذا مات فالدار لورثته، فإذا لم يكن له وارث فلبيت المال.

الحال الثانى: أن يقتصر على قوله جعلتها لك عمرك، ولا يتعرض لما سواه ففى صحة هذا العقد قولان، للشافعى أصحهما وهو الجديد صحته، وله حكم الحال الأولن وفى القديم آراء منها عودتها لصاحبها عند موته، او متى شاء المالك.

الثالث: أن يقول المالك جعلتها لك عمرك، فاذا مت عادت إلىّ. أو إلى ورثتى وفيها خلاف فى الصحة وبطلانها ولأصحاب المذاهب أقوال متعددة[٣].

ويلحق بالعمرى الرقبى وهى التى ترد عند موت واحدٍ من الطرفين[٤] .

---

(١) ، (٢) أخرجه مسلم / كتاب الهبة / باب العمرى / جـ١١ صـ٧٠،٧١

(٣) انظر "صحيح مسلم" للنووى جـ١١ صـ٧٠،٧١

(٤) راجع "المغنى" لابن قدامة جـ٥ صـ٦٨٧،٦٩١

والشاهد فى ذلك: أن العمرى والرقبى هما من أنواع التكافل المعاشى بين المسلمين وباب من ابواب الصدقة، ألا ترى أنها تقضى حاجة امرئ فى سكن، إن كان داراً أو فى عيش إن كانت حديقة، أو مزرعة أو نحوها. نعم، قد يدخلها التحديد بوقت ويعود الأصل إلى صاحبة، ولكنها معونه لصاحب حاجة، والله تعالى أعلم.

ثامناً: الوصية من مصادر التكافل المعاشى:

الوصية فى الشرع هى عهد خاص مضاف متعلق إلى ما بعد الموت، فإن اشتملت على إثبات تصرف لصالح الورثة فهو الإيصاء، وقد أجمع المسلمون على الأمر بها، ومذهب الجمهور أنها مندوبة إلا لمن عليه دين، خلافاً لداود الظاهرى الذى قال بالوجوب[١].

فهى باب من أبواب التكافل بين المسلمين، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾[٢]. ومن السنة ما أخرجه مسلم بسنده عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما حق امرئ مسلم له شئ يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده[٣] .

وحددت السنة الشريفة الوصية بمقدار الثلث، وفى الزيادة عليه خلاف فعن عامر بن سعد عن أبيه قال: عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع من وجع أَشْفَيْتُ منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغنى ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثنى إلا إبنة لى واحدة، أفأتصدق بثلثى مالى؟ قال: لا، قال: قلت: أفأتصدق بشطره قال: لا الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عاله يتكففون الناس، ولست تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله تعالى، إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تجعلها فى فيِ امرأتك..." الحديث[٤] .

---

[١] راجع "المغنى" لابن قدامه جـ٦ صـ١،٥ / شرح مسلم للنووى جـ١١ صـ٧٤

[٢] سورة النساء (١٢)

[٣] أخرجه مسلم / كتاب الوصية / جـ١١ صـ٧٤

[٤] أخرجه مسلم مطولاً فى الموضع السابق جـ١١ صـ٧٦ إلى ٨٠

فالوصية على هذا لاشك فى كونها باب من أبواب صلة المسلم للمسلم وتكافلها، وربما وقعت الوصية عند غير المسلمين، ولكن أكثر ما تكون للحيوانات. نعم، السنة لم تغفل مسئولية الانسان عن الحيوان ففيه الجنة والنار، ولكن هل يُتْرَك الإنسان الذى كرمه الله تعالى، ويوصى للحيوان؟ فى عصر تموت فيه شعوب من الكوارث بأشكالها وأنواعها تارة، ومن الجوع تارة أخرى؟.

إن السنة ـ كرمها الله تعالى وصاحبها ـ لهى التنظيم الأمثل الذى ينبغى أن يتبع ـ بعد كتاب الله تعالى ـ فإن فيها أرفع المثل، وأعظم القيم. والله اعلم

تاسعاً: النذور من مصادر التكافل المعاشى:

النذر فى اللغة هو الوعد بخير أو شر، وشرعا: إلتزام قربه ليست لازمة بأصل الشرع منجزاً أو معلقاً، وأركانه ناذر ومنذور، وصيغة وشرطه إسلام الناذر، وإختياره، ونفوذ تصرفه فيما نذر، وإمكان فعله للمنذور، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾[١] . وقوله: ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً﴾[٢] وقوله: ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾[٣] .

ومن السنة ما أخرجه أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله تعالى فلا يعصه"[٤] .

والنذر أنواع منه بدنى أو مالى، والمقصود هنا النذر المالى، ومثال ما أقره النبى صلى الله عليه وسلم ما رواه أبو داود بسنده عن كعب بن مالك قال: قلت يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله تعالى، وإلى رسوله، قال رسول

---

[١] سورة البقرة (٢٧٠)

[٢] سورة الانسان (٧)

[٣] سورة الحج (٢٩)

[٤] أخرجه أبو داود / كتاب الايمان والنذور / باب ما جاء فى النذر فى المعصية / جـ٣ صـ٢٣٢

الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قال: قلت: إنى أمسك سهمى الذى بخير[٥].

وأخرج مسلم بسنده عن ابن عباس أنه قال: استفتى سعد بن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نذر كان على أمه، توفيت قبل ان تقضيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاقضيه عنها[١].

هذا وقد اجمع المسلمون على صحة النذور، ووجوب الوفاء به[٢]، إذا كان الملتزم طاعة والأظهر فى نذر أم سعد أنه كان نذراً فى المال أو نذراً مبهما، وتقدم حديث سعد فى الكلام عن صدقة التطوع.

يؤخذ من هذه النصوص أن ما يترتب على النذر من بذل مال، إنما يقضى حاجة محتاج، فتكون صدقة عليه، لما فيه من شكر لله تعالى على إسراء نعمه، مع أن النذر لا يغير فى قدر الله شيئا، فمن نذر طاعة مالية وأخرجها للفقراء والمساكين فإنما قضى حاجة عرضت لهم، ورفع عن كاهلهم هَمَّ ما يحتاجون إليه. والله اعلم.

وبعد:

فهذه تسعة مصادر للتكافل المعاشى لا تخرج عن كونها أمثلة لإثبات مدى عناية السنة المباركة بوحدة التكافل بين المسلمين فى مواجهة متطلبات الحياة.

والحق ان مصادر التكافل المعاشى تربوا على ذلك العدد بكثير منها كفارات الايمان، وكفارات الاعتداء فى الحرم، والهدية والعارية والسلم، وضمان المسلم للمسلم، وواجب الضيافة وكفالة الرجل لمن يعولهم، والفئ والغنيمة، ومع إصلاح النفوس بما تتفق إلا أنها تصب فى النهاية فى يد المحتاجين.

---

[٥] أخرجه أبو داود / كتاب الايمان والنذور / باب فيمن نذر أن يتصدق بماله / جـ٣ صـ٢٤٠

[١] أخرجه مسلم / كتاب النذور / جـ١١ صـ٩٦

[٢] راجع "شرح مسلم" للنووى جـ١١ صـ٩٦،٩٧.

كل هذا دعت إليه السنة الشريفة، وبينت مقدار ما أودعه الله تعالى لأهل البر والسخاء والجود، ولا حرج بعد هذا البيان النبوى الشريف أن تصبح النفوس متفتحة للبر ومقبلة على الخير، مندفعة إلى ذروة الإيثار لاعجب فى ذلك وهم يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم، ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

فهل توجد دعوة للتكافل فى الأرض بهذه الصورة المشرقة التى عبر عنها النبى صلى الله عليه وسلم بأبلغ تعبير، وبينها أوضح بيان، فأصبحت سنته المباركة ينبوعاً للخير والبر لا ينضب ولا يغيض، تزرع فى النفوس دوافع الخير، فتحصد أطيب الثمار من شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. والله اعلم.

* * * *

---

[1] سورة البقرة (٢٧٤)

خلاصة البحث ومقترحاته:

وبعد هذا التطـواف ـ بجهد المقل ـ فـى ركـن مـن ارجـاء السـنة المباركـة يختص بجانب التعاون بين المسلمين، وكفالة بعضهم بعضاً، وقد دلت نصوص السنة الشريفة أعظم دلالة على المقصود نخلص إلى المقترحات الآتية:

أولاً: ينبغى على أهل العصر فى الأمة الاسلامية الانتباه إلـى حلـول السـنة الشـريفة لقضايا العصر وإعتقاد قدرتها على وضع أنسب القواعد لأى قضية مسـتحدثه، علـى قدر الاجتهاد فيها، وأنسب الحلـول لأى مشـكلة قـد تعـترض سـير الأمـة إلـى الرقـى والتقدم يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهـم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسـليماً﴾[١] . وهـذا القـول الإلهـى باتباع السنة الشريفة يرجع لقوله تعالى: ﴿ وما ينطـق عـن الهـوى إن هـو إلا وحـى يوحى﴾[٢] . كما يرجع إلى محبـة اللـه تعـالى التـى يبينهـا فـى قولـه: ﴿ قـل إن كنتـم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾[٣]. ومحبة الله عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم تقتضى تقديم أمر اللـه تعـالى وأمـر رسـوله صلـى اللـه عليه وسلم على غيرهما كما قال صلى الله عليه وسلم "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب إليـه ممـا سـواهما، وأن يحـب المـرء لايحبـه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار"[٤]. فمن تمسك بكتـاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لن يضل أبداً.

---

[١] سورة النساء (٢٥)

[٢] سورة النجم (٤،٣)

[٣] سورة آل عمران (٣١)

[٤] أخرجه البخارى فى كتاب الايمان / باب حلاوة الايمان / جـ١ صـ٦٦/٨٨ (الفتح)

سابعاً: تعريف الناس بالسنة المباركة على أنها وحى من عند الله تعالى ينبغى الحرص على تطبيقها فى العلاقات العامة والخاصة وعدم الاقتصار على جانب الأزكار الخالى من الانفعال النفسى والتطبيق العملى لها فى الواقع، والذى يستتبع بالضرورة سعادة الأفراد والأمة والله اعلم

هذا وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

والله من وراء القصد، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د/ عبد الله عبد العليم أبو العيون

مدرس الحديث وعلومه

بجامعة الأزهر.

اهم المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم

٢-الإسلام عقيدة وشريعة الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .ط١٢ - دار الشروق ١٤٠٣-١٩٨٣

٣- اشتراكية الأسلام . أ.د مصطفى السباعى .ط دار مطابع الشعب ١٣٨١ - ١٩٦٢

٤- الأقناع فى حل ألفاظ أى شجاع لشمس الدين الشربينى الخطيب ط الأخيرة . مطبعة مصطفى البالى الحلبى وأولادة - ٣٥٩-١٩٤٠

٥- بدائع الصنائع . للكسانى ط مطبعة الأمام بمصر

٦- البداية والنهاية . لأبن كثير ط دار الفكر العربى

٧- بصائر ذوى التميز . للفيروزبادى. ط. المجلس الأعلى للشئون الأسلامية ط الثانية ١٤٠٦- ١٩٨٦

٨- تاريخ العلوم عند العرب . أ.د على عبد الله الدفاع ط. وزارة المعارف السعودية ١٤٠٣- ١٩٨٣

٩ـ تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ط. مكتبة القدسى .

١٠ـ جامع بيان العلم وفضله لإبن عبد البر ط. دار الفتح طباعه ـ نشر ـ توزيع . مصر

١١ـ حاشية إبن عابدون ط. مصطفى الياس الحلبى واولادة بمصر - الطبعة الثانية ١٣٨٦- ١٩٦٦

١٢- دراساتفى علوم الحديث . أ.د العجمى الدمنهورنى خليفة . ط وزارة الأوقاف .

١٣- دمروا الإسلام بيد أهله . أحلال العالم . ط. دار الأعتصام .

١٤- الرحيق المختوم . للشيخ صفى الدين المبارك فورى ط المكتبة الثقافية

١٥- روح الدين الإسلامى . أ. عفيف عبد الفتاح تباره . ط الخامسة والعشرين ١٩٨٥- ط دار العلم للملايين -بيروت - لبنان

١٦- سنن أبى داود. ط دار أحياء التراث العربى

١٧- سنن الترمزى . ط المدنى

١٨- سنن النسائى . ط دار الفكر - لبنان

١٩- سنن اب ماجه ط دار الفكر - بيروت

٢٠- سنن الدرامى . ط دار الفكر - لبنان

٢١- سنن الدارقطبى ط دار المحاسن للطباعة - القاهرة

٢٢- السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة . أ . د / محمد محمد أبو شهبه . دار الطباعة المحمدية - القاهرة ١٣٩٠-١٩٧٠

٢٣- شرح مسلم للنووى - ط دار أحياء التراث العربى . بيروت

٢٤- شربح الأحاديث المختارة . فضيلة الأستاذ عبد الحميد الشاذلى . الطبعة الثانية مطبعة الأعتماد ١٣٧٧- ١٩٥٨

٢٥- صحيح البخارى . ط : مصطفى اليابى الحابى وأولاده بمصر ط الأخيرة ١٣٧٨- ١٩٥٩

٢٦- صحيح مسلم . ط دار احياء التراث العربى . بيروت

٢٧- صحيح ابن خذيمة - ط المكتب الإسلامى - بيروت

٢٨- الطبقات الكبرى . لأبن سعد ط دار صادر بيروت ١٤٠٥- ١٩٨٥

٢٩- الطب النووى . لأبن القيم الجوزية - مطبعة العلوم -لبنان

٣٠- فتح البارى لأبن حجر العسكرانى اليابى الحلبى - بمصر ط. الأخيرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩

٣١- الفقه على المذاهب الأربعة . ط وزارة الأوقاف ط ٦ - ١٣٩٦- ١٩٧٦

٣٢- قواعد التحديث لجمال الدين القاسمى - عيسى اليابى الحلبى وشركاه بمصر

٣٣- كتاب التعريفات - للجرجانى . ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

٣٤- لسان العرب : لابن منظور . دار لسان العرب بيروت . تحقيق واعداد يوسف الخياط.

٣٥- مجمع الزوائر ومنبع القواعد . للهشيمى - مكتبة القدسى - القاهرة

٣٦- مختار الصحاح - للرازى الطبعة الأميرية - القاهرة

٣٧- مختصر سيرة ابن هشام .ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٣-١٩٩٣

٣٨- مسند الأمام أحمد ط . بيروت

٣٩- مصابيح السنة للأمام الغوى . دار المعرفة - بيروت - لبنان . ط الأولى ١٤٠٧-١٩٨٧

٤٠- الموطأ للأمام مالك - وعليه تنوير الحوالك للسوطى ط دار الفكر

٤١- ميزان الأعتدال للذهبى .ط دار المعرفة - لبنان

٤٢- المغنى لأبن قدامة ط مكتبة الجمهوريةالعربية

محتويات البحث

- مقدمة التكافل الإجتماعى .
- المفهوم الشرعى لمعنى التكافل .
- الأدلة الشعبية لمعنى التكافل .
- تعدد أنواع التكافل الإجتماعى .
- أضواء السنة من جوانب التكافل .

أولا : التكفل الأدبى .

ثانيا : التكافل فى صيانة الأخلاق من الفساد .

- الغزو الأخلاقى يقتضى الأخذ بمنهج السنة فى التكافل .

ثالثا : التكافل العلمى .

- الأساليب التى اتبعها النبى صلى الله عليه وسلم فى تعليم أمته.
- الصحابة والخلف يتكافلون فى نشر العلم .
- المسلمون والإستفادة من علوم الآخرين .
- شهادة مؤرخى أوربا بتكافل المسلمين فى نشر العلم .

رابعا : التكافل الدفاعى والجنائى بين المسلمين .

أ) التكافل الدفاعى .

- مظاهر التكافل الدفاعى .
- من صور التكافل الدفاعى المادى من عصر النبى صلى الله عليه وسلم .

ب) التكافل الجنائى .

١ - القتل الخطأ .

٢ - القسامة .

خامسا : التكافل المادى المعاشى .

أولا : بيان أن المال مال الله تعالى .

ثانيا : بيان قيمة العمل فى الهدى النبوى الشريف .

ثالثا : التكافل العهد النبوى الشريف (المكى والمدنى) .

- العهد المكى .
- العهد المدنى .

رابعا : مصادر التكافل المعاشى كما دلت عليه السنة .

أولا : الزكاة .

ثانيـــا : صدقة الفطر .

ثالثـــا : الأحتاص .

رابعـــا : الأحساس وهى الوقوف .

خامسا : صدقة التطوع .

سادسا : الهبة والعطية والنحلة .

سابعـا : العمرى .

ثامنـــا : الوصية .

تاسعـا : النذور .

- خلاصة البحث ومقترحات .